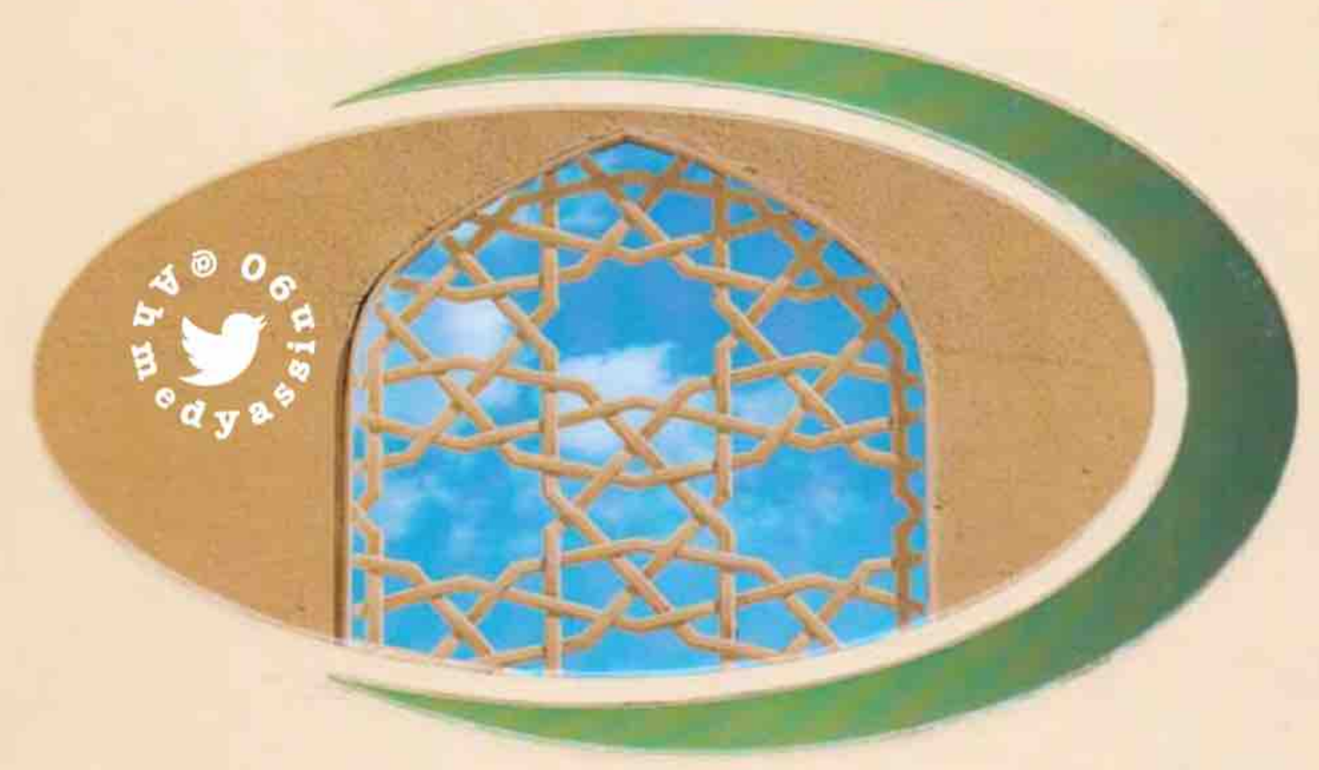
كتابات

على بوابة المستقبل



الدكتور عماد الدين خليل

الدكتور عبد الحليم عويس

دار ابن كثير



(١٢)
كتابات على بوابة
المستقبل

كتابات على بوابة المستقبل الإسلامي

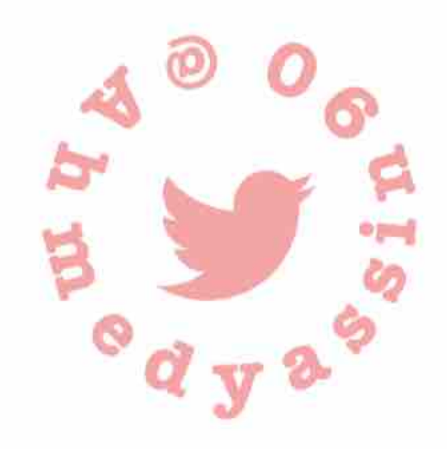


تأليف

د. عماد الدين خليل   د. عبد الحليم عويس

بسم الله الرحمن الرحيم

التجربة الفريدة...
وخمائر المستقبل..


@Ahmedyassin90

أربعة عشر قرناً

١

وأول ما يُبَدِّهُ الفكر والوجدان أن ديناً يمضي على ظهوره أربعة عشر قرناً.. لم يضعف ولم ينحرف ولم يضل الطريق.. بل يزداد قوة ومضياً وعطاء وكثرة أتباع.. دين لا يمكن أن يقضي عليه خصومُه، أو يوقفوا حركته في عشر سنين أو عشرين ـ كما يتوهمون ـ تلك أمانيهم وظنونهم.. فبئست من أمانٍ، وخسئت من ظنون!!

أربعة عشر قرناً وأمة هذا الدين تجابه التحديات الخطيرة.. فتستجيب لها، وتخرج منها ظافرة مرفوعة الرأس.. عالية الراية.. قامتها فوق القامات، وأهدافها فوق الأهداف..

مشركو الوثنية بقيادة رجال الملأ من قريش.. اليهود.. المنافقون.. مرتدو الوثنية بقيادة أدعياء النبوة والزعامات الكاذبة.. نظم الطواغيت في بلاد كسرى وقيصر.. الصليبيون.. المغول.. المستعمرون القدماء.. والمستعمرون الجدد.. موجات إثر موجات، يتكسر عنفها الشرس اللجوج على صخرة هذا الدين فترتد زبداً وغثاء.. ولا يبقى إلا عطاء هذا الدين الذي ينفع الناس.. أربعة عشر قرناً.. وهم يقاتلون هذا الدين في محاولة مديدة متواصلة لرد أبنائه عنه.. لا يرضون له أن يمضي إلى غايته التي رسمها له الله سبحانه، ولا لأبنائه أن يختاروا لهم طريقاً غير طريقهم..

أربعة عشر قرناً ونداءات القرآن الكريم تحذر وتنذر، فما من لحظة سيلقى فيها السلاح ويكف الخصوم عن البغي والكيد:

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾[1]، ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[2]، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[3]..

والله متم نوره ولو كره الكافرون!!

فلتقرَّ عين أتباع هذا الدين، ولترغم أنوف خصومه.. فإن النصر لن يكون إلا لهذا الدين!!

تلك معادلة واضحة يقولها الله.. ويؤكدها التاريخ.. تؤكدها أربعة عشر قرناً من الصراع الذي لا يرحم، والنتيجة الواحدة التي لا تتغير أو تتبدل مهما عظمت التضحيات وغلا الثمن وطال السرى.. أن ينتصر الإسلام ويعلو.. وأن ينتشر نوره في الآفاق!!

٢

هل ثمة من دين أو مذهب اجتاز رحلة الأربعة عشر قرناً، أو حتى القرن والقرنين، دون أن تتشعب به المسالك وتنحرف الطرق وتضل الأهداف؟! عشرات الأديان والمذاهب.. قطعت خطوات قصيرة في الزمن والمكان.. وما لبثت أن تعرَّضت لأكثر من محنة، فلم تصمد لها، فتمزقت وتفتتت وانحرفت عن الطريق.. وعشرات غيرها أشبعها الوضَّاعون والكهنة والمرتزقة دجلاً وشعوذة وترهات، لتحقيق مصلحة وتطمين حاجة.. قبل أن تقطع بعضاً من الطريق الطويل..

---

(١) البقرة: ٢١٧.

(٢) البقرة: ١٢٠. (٣) الصف: ٨.

والإسلام هو الإسلام.. وكتابه هو الكتاب.. وسنته هي السنة.. وهدى خلفائه ورجالاته هو الهدى.. ليس ثمة إسلامان ولا كتابان ولا سنتان.. ليس إلا إسلام واحد وكتاب واحد وسنة واحدة..

يمضي على ذلك أربعة عشر قرناً.. أو أربعة عشر ألفاً من السنين!! والأمر سواء.. فليطمئن أتباع هذا الدين الذين يزحفون عدداً باتجاه الألف مليون مسلم.. وليخسأ الخصوم الذين يتصورون، أو يصوّر لهم الذين يحركونهم من وراء ستار، في ساعة حلم شيطاني.. أن بمقدور قوة في الأرض أن تسحق هذا الدين.. أن توقف حركته.. ليطمئن الأتباع.. وليخسأ الخصوم.. فالله متم نوره ولو كره الكافرون!!

٣

إن هذا الدين يحمل عوامل ديمومته واستمراره.. وهذا أمر بديهي.. فما دام الله سبحانه قد أراد له أن يكون الدين الأخير.. فمعنى هذا أنه سبحانه قد أمده بعناصر القوة والشمول والحيوية والديناميكية ما يجعله قديراً على التواصل مع أجيال البشرية المتعاقبة جيلاً بعد جيل.. وسواء مر على ظهور الإسلام قرن واحد أم أربعة عشر قرناً، أم مئة وأربعون قرناً.. فإن هذا الدين سيظل يحمل ما منحه الله سبحانه من قوة وحيوية.. قديراً على الصمود حيثما يجب أن يكون الصمود، بصيراً بمطالب الحياة البشرية في كل مكان وزمان.. متمكناً من الامتداد والانتشار هنا وهناك.. وليس بزوغ فجر القرن الخامس عشر سوى محطة للذكرى.. ونفحة من نفحات الأمل..

الذكرى لقدرة هذا الدين على الفعل التاريخي، والتحقق، والاستمرار..

والأمل فيما يمكن أن يأتي به من معجزات عبر القرون القادمة بإذن الله.

إنه دين الفطرة الذي يتعامل مع الإنسان بما هو إنسان معجونة في تكوينه قوى الروح والمادة.. والطبيعة والغيب.. والثبات والحركة.. والغرائز والأشواق.. والفاني المحدود بالأزلي الخالد..

ويتعامل مع الطبيعة والعالم كشفاً عن سننهما ونواميسهما التي أودعها الله فيهما.. وسعياً من أجل تحقيق الوفاق المرتجى بين الإنسان والعالم..

ويتعامل مع التاريخ بما أنه حركة دائمة متجددة لا تعرف حراناً ولا سكوناً..

إنه المنظور الإلٰهي المعجز الذي يعرف كيف يتعامل بهذا الدين مع الإنسان، والطبيعة، والتاريخ،.. وإنه لن يُخشى أبداً على دين يعرف كيف يمد جناحيه لكي يغطي مطالب هذه الأقطاب جميعاً..

فما دام الله قد صمم هذا الدين و(أكمله) على يدي رسوله الكريم، ليكون دين البشرية الأخير.. فمعنى هذا أنه قد أريد له أن يظل باقياً ما تنفس إنسان على وجه البسيطة.. دائماً ما طلعت الشمس من مشرقها.. خالداً ما دامت السموات والأرض!!

ولن يُخشى عليه!!

قدرة فذة على مجابهة التحديات

٤

وعبر الأربعة عشر قرناً التي انقضت أثبت هذا الدين قدرة فذة على قبول التحديات وهضمها وتمثلها، سلماً وحرباً..

لقد جُوبه هذا الدين منذ فجره المبكر بردة شرسة قاسية.. فاستجاب لها وخرج منها أكثر صلابة وتوحداً، وانطلق إلى العالم غير عابئٍ بنذر كسرى وقيصر.. فلما تم له الانتصار عليهما عبر فترة زمنية قياسية تثير التأمل والإعجاب.. عرف كيف يفتح صدره لتراث الأمم والشعوب ومعطياتها الحضارية.. عرف كيف يتعامل معها وفق معاييره الواضحة الحاسمة، فيأخذ ما يمكن أخذه ويرفض ما يتوجب رفضه.. إنه ها هنا في ساحات السلم والعطاء، كما هو هناك في ساحات الحرب والشهادة.. قدير على الاستجابة للتحديات، غير هارب منها أو ناكص عنها.. إنه دين التقدم والحركة والاقتحام.. ولن يتردد إزاء شيء أبداً.. سلماً أو حرباً.. وعلام التردد وهو يملك من عوامل القوة والأصالة والشمول ما هو قدير بها جميعاً على أن يصهر كل ما يعترض طريقه بالنار التي تحرق والنور الذي يضيء؟!.

وطيلة القرون التالية وهو يتعرض لتحديات قوى كانت في كثير من الأحيان تفوقه عدة وعدداً.. ولكنه كان دائماً المستجيب لتحديها، المتقدّم

لمجابهتها.. والمنتصر عليها في نهاية الأمر.. وليس ثمة من لا يعرف الذي فعله هذا الدين وأتباعه إزاء هجمات الصليبيين وغزو المغول.. رد أولاهما على أعقابها واحتوى الثانية.. فإذا بالغالب القاهر يتقبل الانتماء للدين الذي تصور أنه غلبه.. ويخضع له ويطيع!!.. وهي تجربة تاريخية تكاد تكون (نادرة) بين التجارب.. أن يخضع الغالب للمغلوب!! ولكنها في حقيقة الأمر ليست نادرة.. فإن السر يكمن في عبقرية هذا الدين..

٥

واليوم، وهو يطل على قرنه الخامس عشر، يجد نفسه محاصراً بألف تحدٍّ وتحدٍّ. إن الاستعمار الجديد والمادية الملحدة يضيقان الخناق عليه بالغزو الفكري والتخريب الأخلاقي والتدمير الاجتماعي والاستنزاف الاقتصادي والصراع الاستراتيجي.. والصهيونية التي فاقت أشد العنصريات في التاريخ صلفاً ووحشية وأنانية وغروراً تضع كافة إمكاناتها جنباً إلى جنب مع هذين الخصمين لسحق هذا الدين وإبادة أتباعه، أو إضعافهما وشلهما على الأقل..

وغير هؤلاء وهؤلاء عشرات، بل مئات من الضغوط والتحديات.. ترى.. هل سيقدَّر للإسلام هذه المرة أن يخرج من المعركة الطاحنة ظافراً، منصوراً؟

نعم! وإنه لمن (البديهيات) في عمر هذا الدين ذي الأربعة عشر قرناً أن يخرج ظافراً منصوراً حيثما وجد نفسه في وضع (المتحدي).. طال الوقت أم قصر.. فالعبرة ـ كما هو معروف ـ بنتائج الأمور وأخرياتها، لا ببداياتها الأولى حيث تغيم الرؤية وتنقطع أنفاس ذوي النفس القصير.. لقد ازداد الإسلام بمرور القرون قدرة على الرد.. وإنه لتراكم في الخبرة، يمنحه الزمن إياه، سيهبه ـ ولا شك ـ فاعلية أكبر في المجابهة والاقتحام..

إنه يملك اليوم (خبرة) أربعة عشر قرناً من العمل والصراع والتجربة والعناء والمقاومة والاختبار. . ولن تذهب هذه الخبرة عبثاً بمجرد أن تصدق النية، ويصح العزم، ويخلص الإيمان. .

ترى. . أيمكن القول بأن الإسلام، يوم أن يستقبل قرنه التاسع عشر أو العشرين من عمره المديد، سيكون أكثر قدرة على الاستجابة للتحديات والتفوُّق عليها؟!.

٦

وعبر مسيرته الحافلة ذات الأربعة عشر قرناً. . كان الإسلام قديراً ـ أبداً ـ على التجدد والانبعاث، وكلما ادلهمّ خطب وذرت الفتنة قرنها، وكاد اليأس أن يأخذ بتلابيب النفوس والأرواح. . برز رجل أو انبعثت حركة. . فما يلبث هذا الدين أن يجد من ينطلق به إلى آفاق جديدة. . فيزداد قوة. . وتمكناً. . وأصالة. . وعطاء. . حتى لقد أصبح من المُسلّم به كما أخبر الرسول ﷺ، أنه على رأس كل قرن هجري سيجيء من يقوم بالدور الموعود. . رجلاً أو جماعة أو حركة. . فيمضي بالموكب المبارك إلى مواقع جديدة متجاوزاً به المنزلقات والعقبات والأشواك!!. . إنه دين يحمل في تركيبه المعجز القدرة الأبدية الخلاقة على التجدد والانبعاث. . بل إن هنالك ما هو أعجب من هذه الظاهرة في تاريخ هذا الدين وتركيبه. . إنه حيثما خسر المعركة، أو انحسر وتراجع في جبهة من الجبهات، تحرك في جبهات أخرى، لكي يحقق أكثر من نصر فيعوض هنا عما خسره هناك. . ويكون في نهاية التحليل هو الفائز في حساب الخسائر والأرباح!!.

إن الأربعة عشر قرناً التي تشكل عمر هذا الدين غنية بالشواهد على هاتين الخصيصتين اللتين تميزان هذا الدين فيما تميز به من معالم وسمات. . القدرة على التجدُّد والانبعاث، والقدرة على التعويض. . وإنه ما

من دين أو مذهب في التاريخ امتلك هاتين القدرتين بالسعة والديمومة والعمق التي امتلكها به هذا الدين العظيم. .

ولن يغني الكلام هنا عن متابعة (شاهد) التاريخ نفسه. .



خبرة الماضي

٧

باتجاه الألف مليون عدداً من المسلمين.. نتذكر الدعوة في أيام محنتها الأولى.. زمن الأفراد القلائل المضطهدين.. المطاردين.. ونتذكر الرجل الأول الذي صنع المعجزة.. ونتذكر وعد الله بالنصر المبين: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ﴾[١]..

إذاً فقد صدق الله وعده.. ولن تكون أكاذيب الأرض كلها بقادرة على أن تعكس صدق هذا الدين وقدرته الأبدية على الانتصار..

لقد زرعتَ يا رسول الله، وزرع معك أصحابُك وتابعوك بإحسان.. عبر عشرات السنين ومئاتها وهم يحرثون الأرض ويلقون البذور.. ويزرعون.. وكانت أبصارهم وعقولهم معلقة بالله.. ما من كبيرة ولا صغيرة إلا وهم يتحركون بها من خلال رؤيتهم الإيمانية التي ترى وجود الإنسان في العالم امتداداً لإرادة الله وقدره، وكانوا يريدون إعادة صياغة العالم.. قلب تربته العفنة التي غطت على مساحته.. قلبها من الأعماق، وإظهار التربة الجديدة.. التربة النقية لكي تكون الثمار نظيفة قوية معطاء: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾[٢].

---

(١) غافر: ٥١.

(٢) الفتح: ٢٩.

ولقد كان الحصاد عظيماً حقاً: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[1].

ورغم أن العالم اختار أن ينقلب على صوتك المؤثر.. أن يمرق عن صراطك المستقيم.. رغم أنه أعاد قلب التربة ـ ثانية ـ لكي يغطي جغرافية القارات كلها بالعفن والفساد، فلا يتبقى ثمة ما هو نظيف طاهر.. رغم هذا وذاك.. فإن طائفة من أمتك ستظل تواصل الطريق، وسيظل أملها معلقاً بالله.. أن تعيد صياغة العالم ثانية وثالثة ورابعة إلى أن يتحقق النصر الموعود.. وهو لابد آتٍ ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2]. إننا ونحن نتحرك باتجاه القرن الخامس عشر، المبارك بإذن الله، نتذكر أنه ما من قرن تصرم من هذه القرون الأربعة عشر، كان أتباع محمد عليه الصلاة والسلام فيه عاجزين عن الحركة.. عن أن يعملوا شيئاً.. أنه ما من قرن إلا وتبرز منهم طائفة ترفع الراية، وتتحرك بإيمانها الفذ ويقينها الوضيء لكي تثبت مواقع هذا الدين وتمدها إلى الآفاق.

٨

لقد كانت رحلة الأربعة عشر قرناً مسيرة صعبة قاسية، باهظة الثمن كثيرة التكاليف.. لكنها كانت في الوقت نفسه كثيرة العطاء.. وإنه ليس ثمة جزاء كبير دون جهد كبير.. ولقد بذل أبناء هذا الدين، عبر كل قرن، الكثير الكثير جهداً وعرقاً ودماً غزيراً، فلم يذهب هذا كله عبثاً.. لقد آتى ثماره، وملأ الدنيا عطاء سخياً..

---

(١) إبراهيم: ٢٤، ٢٥. (٢) آل عمران: ١٣٧ ـ ١٣٩.

الدعوة التي كانت تتحرك في طرقات مكة خائفة وجلة، أصبحت تقول كلمتها بمواجهة عروش كسرى وقيصر فتسقطها وتذلها.. الصلوات التي كانت تقام سرّاً في دار منزوية في أنحاء أم القرى.. صارت تقام على شواطئ الأطلسي وتخوم الصين.. يطمح أصحابها أن يجتازوا البحر والتخوم لكي لا يبقى ثمة مساحة في العالم لا تقام فيها صلاة ولا يذكر فيها اسم الله.. المستضعفون في الأرض الذين كانوا يطاردون ويضطهدون ويعذبون ويجلدون.. غدوا قادة العالم وساسته وحكّامه.. كتاب الله الذي كان يحكم بالقتل على قارئه أصبح دستور الدنيا ومرشدها..

لقد كانت مسيرة باهظة حقّاً، ولكن الجزاء كان كبيراً!!.

٩

إنه ما من أمة في الأرض تعرضت عبر مسيرتها التاريخية لما تعرض له أبناء هذا الدين.. لقد تكالبت عليهم قوى العالم كله، منفردة حيناً متجمعة أحياناً.. وإنها لتختلف وتتنازع وتتناحر فيما بينها إلا حينما يكون الأمر قتالاً لهذا الدين فإنها تأتلف بقدرة قادر لكي تضرب عن قوس واحدة.. منذ معركة الأحزاب حيث تجمَّع اليهود والوثنية العربية والبدو والمنافقون، وحتى آخر لحظة من عمر القرن الرابع عشر الذي آذن بانقضاء، حيث تتجمع معسكرات الصهيونية والمادية والصليبية والاستعمار الجديد.. كان الإسلام هو هدف الخصم والبؤرة التي تجذبهم إليها..

ولكنه كان دائماً هدفاً صعباً، وكانت دائماً بؤرة شديدة الجمر تعرف كيف تحرق الأيدي التي تمتد إليها لكي تطفئ سراجها الوهاج..

واليوم ونحن نقف على أعتاب قرن جديد نتذكر طوابير الخصوم الأعداء.. حشود المهاجمين والغزاة والمستعمرين.. وإنها حقاً لطوابير

طويلة وحشود كثيفة لا يكاد يرى أولها من آخرها.. ولكننا كنا ـ رغم هذا التواصل الزمني الشرس لضرب الإسلام واستئصال شأفة المسلمين ـ كنا غالباً المنتصرين، وتلك منة من الله يتوجب ألا نغفل عن شكرها لحظة واحدة..

إن هذا الدين يحمل سر بقائه المعجز وديمومته الفذة، ولن تستطيع قوة في الأرض أن تمحق كلمته من الوجود.. لقد حدث عبر الأربعة عشر قرناً الماضية أن هُزمت كل الحشود والطوابير التي سعت لاغتيال هذا الدين، وبقي الإسلام صامداً متفرِّداً ماضياً لتحقيق كلمته في العالم.

١٠

إن رحلة الأربعة عشر قرناً تمثل رصيداً كبيراً من تجارب الخطأ والصواب.. ونحن نتحرك باتجاه قرن جديد يتوجب علينا كمسلمين أن نراجع أنفسنا ونعيد النظر في معطيات المسيرة الطويلة، ويقيناً فإننا سنتعلم الكثير الكثير.. وهل ثمة أكثر خبرة من التاريخ؟! هل ثمة أكثر عطاء ومنحاً من هذا الزمن المترع ذي العصر الطويل، والذي يمكن بدراسته وفهمه أن نستخلص أبعاد التجربة ونكتّشف مؤشرات العمل والحركة عبر القرن القادم؟!.. إن أمة لا ترجع إلى نفسها لكي تنقد ذاتها، أمة غير جديرة بالحياة، وإن أمة لا تلتفت إلى ماضيها في نهاية كل شوط من الرحلة التاريخية الطويلة، أمة غير قادرة على المضي في المشوار إلى غايته..

إن الحُفَر والعقبات والمتاريس في طريق المستقبل كثيرة.. ويزيدها كثرة أننا أمة تكالبت عليها الأمم، فإن لم تستمد من تاريخها الهادي والدليل فقد يخشى عليها ما تنبأ به الرسول المعلم عليه الصلاة والسلام.. أن تغدو في قرنها القادم قصعة يزداد المولمون عليها..

إن القرن القادم سيكون ولاشك قرن الصراع الدولي الحاسم في ميادين العقيدة والاستراتيجية. . والإرهاصات واضحة بيِّنة قد أخذت تطل برأسها في العقد الأخير من قرننا هذا. . والخارطة العالمية لمواقع الأمم والشعوب ستزداد ألوانها عمقاً وتميزاً. . ولن يكون لنا خيار في أن نتميز، نحن الآخرين، وإلا امتصنا هذا اللون أو ذاك وأصبحنا نبحث عن مواقع الأمة الإسلامية في العالم فلا نكاد نجد لها أثراً. . ثمة ظلال باهتة للأصفر ذات اليمين وللأحمر ذات الشمال. . وقد منحنا ديننا الصبغة التي تميزنا بين الأمم وتمنحنا الهوية واللون على خرائط العالم. . ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾[1].

إن هجمات القوى المضادة للإسلام، كما يبدو من المقدمات، ستزداد عنفاً وشراسة مع الأيام. . وقد تداعت علينا ـ متفقة أو غير متفقة ـ معسكرات المادية والصليبية والصهيونية والإمبريالية، ومن يدري فلعلها قد اعتزمت أمراً أكبر بكثير وأخطر بكثير من كل تخميناتنا وتوقعاتنا. . فلنكن على حذر ولنجعل من القرن القادم قرن النفير العام للدفاع عن الذات بمواجهة الإفناء المحتمل، ولتعميق ملامح الشخصية بمواجهة عمليات الطمس والتشويه. .

١١

إن (توينبي)، مؤرخ الحضارات المعروف، يقول: إنه من بين بضع وعشرين حضارة بشرية شهدها التاريخ، لم يتبقَّ غير سبع، ست منها، بضمنها حضارتنا الإسلامية، مهددة اليوم بالابتلاع والتلاشي في كيان الحضارة الغربية. . وسواء صح هذا الذي استنتجه الرجل، بعد رحلة

(١) البقرة: ١٣٨.

استقرائه ذات الثلاثين عاماً، أم لا، فإن الذي يحدث على مستوى الواقع هو أن حضارتنا، أو بقايا حضارتنا بشكل أدق، مهددة فعلاً بالتفكك والتلاشي والزوال.. ولا ندري إن كان القرن القادم سيكون قرن الاحتضار أم الميلاد الجديد؟

وسيكون القرار الأخير بأيدينا.. إنه قد مضى إلى غير رجعة زمن الإسقاط والهروب، يوم كنا نتخذ من الاستعمار مشجباً نعلّق عليه كل هزائمنا ومتاعبنا، وكأننا لم نكن نحن بقابليتنا ـ كما يقول المفكر الجزائري مالك بن نبي رحمه الله ـ قد مكنا للاستعمار في نفوسنا وبلادنا..

إنه قد آن الأوان لكي نصحح المسار فنعترف بالخطأ مهما عظم من أجل أن نعد أنفسنا للمجابهة النهائية الحاسمة على كل الجبهات.. وحينذاك يمكن أن نسد كل ثغرة قد يتسلل منها الخصم في مشارف حدودنا الشاسعة أو تخوم نفوسنا الضائعة..

مفاتيح التغيير

١٢

والمفاتيح التي منحنا إياها هذا الدين للتمكن من المجابهة والتحقق بالانتصار واضحة بينة، إنها على وجه التحديد مفتاحان لا ثالث لهما: التغيير الذاتي على مستوى النفس، والإعداد الذاتي على مستوى الجماعة.. وإنهما بتعبير الرسول المعلم عليه الصلا والسلام: جهادان جهاد أكبر ضد هوى النفس وانحرافاتها لتحريرها وتمكينها من التزام الصراط.. وجهاد أصغر ضد الخصوم والأعداء على مدى العالم كله لتحريره من الطاغوت وتمكينه من التزام الصراط..

ولقد قالها القرآن الكريم بوضوح لا مزيد عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(١)، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(٢)، وفي مقابل عملية التغيير الذاتي هذه ألزمنا بأن نعمل على التحقق بالاستعداد اللازم للجهاد الآخر: القتال على أرضية العالم لتنفيذ كلمة الله في الأرض.. وقالها بوضوح لا مزيد عليه: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾(٣)، وثمة سورة بكاملها سُمِّيت بسورة الحديد، ولهذا دلالته ولا ريب.. ونقرأ إحدى آياتها: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ

(١) الرعد: ١١.
(٢) الأنفال: ٥٣.
(٣) الأنفال: ٦٠.

ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(١) . . فإذا بها تحمل مؤشِّراً واضحاً على مدى اعتماد خام الحديد وهو واحد من أخطر خامات الأرض، لأغراض التسليح. . إن الدولة التي تملك خام الحديد تستطيع ـ كما هو معروف ـ أن ترهب أعداءها بما يتيحه لها هذا الخام من مقدرة على التسلح الثقيل، وتستطيع ـ أيضاً ـ أن تخطو خطوات واسعة لكي تقف في مصافِّ الدول الصناعية العظمى التي يشكل الحديد العمود الفقري لصناعتها. .

ونتذكَّر ها هنا آيات من سورة سبأ يرد فيها ذكر الحديد: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًاۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٢) . . نتذكر نعمة الله على نبيه وعبده داود بتسييل الحديد له، أو بتعليمه كيف يسيل الحديد، وهي بصدد الحديث عن البناء والإعمار والتصنيع، ونتذكر ـ أيضاً ـ ذا القرنين وهو ينادي الجماعة المضطهدة: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾(٣) . .

ويلفت أنظارنا، في آية سورة الحديد آنفة الذكر، ذلك التداخل العميق والارتباط الصميم بين إرسال الرسل وإنزال الكتب معهم وإقامة الموازين الدقيقة لنشر العدل بين الناس، وبين إنزال الحديد الذي يحمل في طياته البأس والمنفعة، ثم التأكيد على أن هذا كله إنما يجيء لكي يعْلَمَ اللهُ ﴿مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. .

وهكذا، فإن المسلم في هذا العالم لن تحميه وتنصره إلا يده المؤمنة التي تعرف كيف تبحث عن الحديد وتصوغه من أجل الحماية والنصر، وهو

---

(١) الحديد: ٢٥.

(٢) سبأ: ١٠، ١١. (٣) الكهف: ٩٦، ٩٧.

بمجرد أن يتخلَّى عن موقفه الفعَّال هذا، ويختار مواقع الفرار والانتظار الاتكالي لمعونة الله، فإنه يتناقض مع نفسه وعقيدته، وسيهزم لا محالة ما دام قد أشاح عن هذه الحقائق القرآنية التي تكاد تصرخ بأعلى نبرة: إنه بدون الاعتماد الواعي المسؤول البصير بمصادر القوة والبأس، فلن يكون هناك نصر أو حماية للموازين العادلة التي جاءت الأديان لتنفيذها في الأرض، حتى ولو حبس المؤمنون أنفسهم في المساجد السنين الطوال، يبكون ويتضرَّعون.

لقد جربنا أن نتسوَّل السلاح من الشرق والغرب، أن نتذلل لهما ونمنحهما الكثير من الحقوق والامتيازات والأموال.. فلم نستطع أن نحقق الانتصار المرتجى.. لأن الكلمة النهائية في استخدام أكداس السلاح المشتراة ظلت بأيديهم، ولأن القدرة على مواصلة استخدام هذه الأكداس ظلت بأيديهم أيضاً.

أفلم يَحِنِ الوقت لكي نتعلم من الخطأ الذي مارسناه مرة ومرتين وثلاثاً.. وعشرين، وأن نحذو ولو مرة واحدة حذو أمم مثلنا قدرت ـ بالاعتماد على أنفسها ـ من تحقيق وجودها في العالم؟!

إنهما مفتاحان للنصر لا ثالث لهما.. فهل يكون القرن الجديد بداية جادة للدخول بواسطتهما من الأبواب التي ظلت موصدة في وجوهنا عشرات السنين ومئاتها؟

١٣

وثمة ما يوحي بالأمل، فإن كسور الحضارة المادية المعاصرة وشروخها ستزداد اتساعاً وعمقاً عبر القرن القادم.. إن معاناتها المكثَّفة أخذت تتضح أكثر فأكثر في العقود الأخيرة، وهي ولا ريب ستأخذ طريقها وفق متوالية

حسابية، وربما هندسية، لكي تتضاعف على مستوى الكم والنوع على السواء.

والذي يؤكد هذا هم الغربيُّون أنفسهم، سواء منهم الذين انشقوا على هذه الحضارة وبدؤوا يوجهون إليها نقداتهم، أم الذين يعيشونها يوماً بيوم فيقدمون بسلوكهم وتجاربهم مثلاً حيّاً على الأزمة الضيقة التي تأخذ بخناقها. . وهؤلاء وأولئك ليسوا ناساً عاديين أو هملاً، ولكنهم من قادة الفكر ورؤوس المجتمعات الغربية، وأقوالهم يجب أن تؤخذ على محمل الجد. . إنهم رجال من مستوى أشبنغلر وتوينبي وكولن ولسون وبرناردشو وكامي وهمنغواي وماسينيون وأرويل وكوستلر وجيورجيو وليبولدفايس وفيتز جيرالد وغروترود شتاين وسوليفان. . مؤرخون وأدباء وعلماء وفلاسفة، وقد وقفنا عند بعض شهاداتهم، وحللنا دلالاتها في غير هذا المكان، فلا داعي لإعادة القول فيها. . والمهم هو أن (الشهادات) التي تدين الحضارة العلمانية المعاصرة ستزداد تنوُّعاً واتساعاً عبر القرن القادم، وستجعل إدانة هذه الحضارة أكثر عنفاً ووضوحاً.

وفي مقابل هذه الشهادات والإدانات ثمة الكثير مما قاله الغربيون أنفسهم عن مستقبل الإسلام. . وهي أقوال يتوجب علينا ألا نحملها على محمل الجدّ الكامل؛ لأن القوم ـ هناك ـ يتمنون ويتنبؤون هروباً من الأزمة التي تأخذ بخناقهم. . ولأن أقوالاً كهذه قد تخدِّرنا عما نعانيه فعلاً، وتعلق أحلامنا وأهدافنا وأمانينا باليوم الموعود الذي تغنى به الغربيون، ولن تصنع اليوم الموعود إلا عقولنا وسواعدنا. . ومن ثم أقصى ما يمكن أن نفيده من شهاداتهم تلك هي تأكيد حقيقة أن العالم يعاني ـ فعلاً ـ أزمة قاسية، وأنه بحاجة ـ فعلاً ـ إلى قارب النجاة. . قبل أن يموت أو ينتحر غرقاً. .

والمسألة ـ كما هو واضح ـ ليست في إيجاد البديل، فها هو ذا ساطع بين كالشمس والقمر. . ولكنهم ـ لأكثر من سبب ـ لا يعرفونه تماماً ولا

يقدرونه تماماً. . وإذاً فإن المطلوب في العقود القادمة هو تحقيق القدرة على التوصيل. .

إن الاستعداد للتقبل سيزداد اتساعاً مع الأيام. . والفراغ الذي يتمخض عن معطيات حضارة لا تعرف الله والإنسان سيزداد عمقاً. . والتاريخ يصنعه أحياناً توقيت ذكي لإصابة الأهداف. . وها هي ذي الأهداف المواتية تدعونا، فلنعدَّ للأمر عدَّته فإن كسب رجل مثقف من عالم الغرب. . رجل على مستوى جرمانوس أو دينيه أو ليوبولدفايس أو بوكاي، هو كسب كبير يزيد في رصيد الإسلام مرتين، مرة بانتماء الرجل إلى هذا الدين، ومرة بتوظيف قدراته لتوصيل قناعاته الجديدة إلى بني جلدته بلغتهم نفسها وقناعاتهم ذاتها. .

١٤

ومع الأمل الذي تبعثه فينا حاجة العالم المعاصر إلينا. . ثمة إضاءات قرآنية تتقدح في طيات المستقبل الغامض كومضات النجوم الساطعة في السماء البعيدة. . وقد غدا الوميض البعيد، عبر مراحل متعددة من تاريخنا ذي الأربعة عشر قرناً من العمر أمراً واقعاً. . ناراً في قلب العالم، على مساحات واسعة من أرضيته. . تحرق وتضيء في الوقت نفسه. .

ولكن كيف؟

ليس بالأماني والظنون والأحلام. . يقيناً. . ولكن بالفعل والتحقق والتجريب والممارسة والجهد والمقاومة والحركة. .

وما لم نعمل عقولنا وأذرعنا لإشعال النار المقدسة في صميم العالم، فإن قبسها سيظل معلّقاً هناك في السموات النائية، حيث تغرق الدنيا في الظلام. . فلننظر إليها ولنعرف الطريق الذي يتوجب أن نسلكه لتحويل

الكلمات المضيئة إلى أفعال مضيئة، والنذر المتوعدة إلى نار مشتعلة.

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾[1].

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾[2].

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ﴾[3].

﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[4].

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾..[5].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[6].



(١) إبراهيم: ١٣، ١٤.
(٢) الأنبياء: ١٠٥ ـ ١٠٦.
(٣) الأعراف: ١٣٧.
(٤) الأعراف: ١٢٨.
(٥) القصص: ٥، ٦.
(٦) النور: ٥٥.

دين الحركة والمستقبل

١٥

والإسلام هو دين الحركة.. والتقدم.. والتشوُّف الأبدي إلى الأمام.. إلى المستقبل.. من أجل إعادة الوفاق مع سنن الكون ونواميس العالم.. ونحن نتحرك باتجاه قرن جديد يتوجب أن ندرك هذا جيداً، فالمسلم ـ إذا أردنا الحق ـ هو التقدمي الوحيد!!

إن الإسلام يمثل موقفاً في قمة حركة التاريخ؛ لأنه دعوة لاكتشاف الحركة والتوافق معها.. ليس مع حركة التاريخ فحسب كما تسعى الماركسية، ولكن مع نواميس العالم والكون كله.. ولو شعر المسلم الجاد أنه يقف في موقف ساكن، أو رجعي، لغادره مباشرة بمجرد أن يملك ذرة من ذكاء، لكن قناعته تنبثق من كونه ينتمي إلى العقيدة التي تجعل منه الإرادة الفاعلة في العودة بذاته وبمجتمعه وبالبشرية عموماً إلى طريق التوافق والتقدم ـ من ثم ـ بزخم عظيم يتولد ـ بالضرورة ـ من التقاء الطاقات الإنسانية والمادية في إطار التوافق، وليس تصادمها وتقاطعها وتفتتها.. التقدم إلى كشفٍ أعظمَ، وخطواتٍ أوسعَ، وبناء أكثرَ ديمومةً ورسوخاً يقام على هذه الكشوف..

لو أن المسلم الجاد يشعر لحظة بأنه يقف في موقف رجعي أو ساكن لتخلَّى عنه توّاً، ولكنه يحس أنه يتحرك في قمة المسيرة التاريخية دائماً، لأنه ملبٍّ لكلمة الله التي تقوده وتحدوه.. ومَنْ، غير الله سبحانه، من يقدر

على تحديد مواقع الرجعية، والسكون، والتقدمية.. الله الذي يعلو على مواضعات الزمان والمكان النسبية، ويستشرف، بعلمه المحيط، صيرورة الكون والتاريخ والحضارات؟!.

لقد تحدث عشرات الوضعيين، بل مئاتهم، منذ عهد أرسطو وسقراط وأفلاطون، وحتى عصر برغسون وديوي وتوينبي وسارتر، مروراً بماركس وأنجلز وهيجل وكومت وبلاييف وغيرهم.. تحدثوا عن مفاهيم الحركة، وكل اتخذ موقفاً إزاءها، وحدد على ضوء موقفه ما هو رجعي وما هو ساكن (إستاتيكي)، وما هو حركي تقدمي (ديناميكي).. موقفاً يختلف بدرجة أو أخرى عن مواقف الآخرين.. فمن منهم يا ترى يكون مصيباً؟ ولماذا يكون ادعاء العلمية والصواب المطلق حكراً على هذا المفكر أو الفيلسوف أو ذاك.. ما داموا أنهم جميعاً أعملوا عقولهم من خلال قدرات نسبية ومعرفة غير كاملة بالحقائق.. ثم أصدروا حكمهم بعد هذا؟

ليس ثمة قول فصل في هذا المجال.. كما هو الحال في أي من مجالات الفكر الوضعي فيما يسمى بدائرة العلوم الإنسانية التي يحلو لرجالاتها ادعاء العلم المطلق، وأن ما يطرحونه من فلسفات هو بمثابة كشف نهائي لسنن العالم والحياة.. على العكس من رجالات العلم المختبري الذين علمتهم مناهج بحثهم العلمية حقاً أن يتواضعوا فلا يقعوا في مظنة الادعاء.. والمسلم الجاد يرفض وصاية أحد من الوضّاعين، ويرفض تصنيفهم للناس إلى رجعيين وسكونيين وتقدميين، كما يرفض تصنيفهم للحقائق والسنن والنواميس لأنهم، كما يصفهم القرآن: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾[1].

(١) النجم: ٢٣.

والمسلم الجاد مقتنع حتى آخر قطرة من دمه، وأعمق خلية في دماغه، أنه يختار بإسلامه أكثر المواقع حركية وتقدمية في مسيرة التاريخ ونواميس الكون وخرائطه.. وإن جهاده الذي هو بمثابة ثورة دائمة، إنما هو استراتيجية الحفاظ على هذا الموقع، ودعوة الإنسان في مشارق الأرض ومغاربها إلى اختياره.. وصدق الله العظيم: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾[1].

(١) الشورى: ٥٢، ٥٣.

هندسة جمالية للثقافة

١٦

وماذا عن المسار الثقافي في قرن ستبلغ فيه إمكانات التخطيط والبرمجة والدقة المنهجية آفاقاً بعيدة.. ونحن لا نزال في قطاعات واسعة من معطياتنا الثقافية، نتخبَّط في الفوضى والارتجال واللامنهجية؛ في وقت يتوجب علينا أن نفيد إلى أقصى مدى ممكن من كل ما تضعه تحت أيدينا هذه الإمكانات من أجل أن نختصر الزمن الذي يفصلنا حضارياً عن الآخرين، ومن أجل أن نوفِّر في الجهد الذي نحن بأمس الحاجة إلى سعراته لمواصلة السباق الدؤوب؟!

إن الحديث في (منهجية) المسار الثقافي وضروراته يطول ويتشعَّب، ومن ثم سأكتفي ببعض الملاحظات المتواضعة علَّها تلقي إضاءات بسيطة على جوانب من المشكلة المنهجية، وتنير جانباً محدوداً من طريقنا إلى القرن الجديد.

إنه يتوجب على المفكر الإسلامي الحديث أن يغدو (مهندساً) يلتزم قواعد التقابل والتناظر والتناسب، ويعمل بموجب التوزيع الرياضي الصارم للأبعاد والمساحات، ويدرك أن (العمل الفكري) لا يستوي على سوقه إلا بأن يُلتزمَ فيه شرطان أساسيان؛ هما: (العلم) و(الجمال)، أو المحتوى، والأسلوب، أو كما يقول قدماؤنا: (المعنى) و(المبنى).. إلا أن المطابع ـ للأسف ـ تقذف لنا بين الحين والحين، كتباً ومؤلفات يغيب فيها التناسب

وتختفي الدلالات المحددة وراء ركام من الكلمات والعبارات (الإضافية) التي لا تصل بالقارئ إلى أهدافه إلا بعد أن تجتاز به عشرات المنحنيات والدروب المعوجَّة..

وعندما يصل يكون قد أرهق، وهو غير مستعدٍّ لتقبل الحقيقة النهائية التي سيكشف عنها النقاب آنذاك!!

وإذا كان هذا مباحاً لكُتَّاب الأجيال الماضية.. حيث لم تكن أساليب البحث الفكري ومناهجه قد نضجت واكتملت؛ فإنه يُعَدُّ خطيئة كبيرة في العقود الأخيرة التي بلغت فيها تلك الأساليب والمناهج حدّاً واضحاً من النضج والاكتمال، وانتشرت في أنحاء الأرض بحيث أصبحت بداهاتها وقواعدها في متناول الجميع..

فإذا ما أضفنا إلى هذا ما يتميَّز به عصرنا الراهن من سمات أبرزها السرعة التي تتطلب التركيز، والتوغل البعيد في ميادين العلوم جميعاً مما يستلزم طرح أفكار وسبر أغوار، بعيداً عن الترهات البلاغية والمبالغات الإنشائية، كان لنا أن نعرف مدى ضرورة أن يتحول كل كاتب منا إلى (مهندس) يعتمد أدوات (اللغة) المناسبة؛ لإيصال أكبر قدر من الأفكار إلى عقول المثقفين ونفوسهم. إذ يجب أن يكون هناك ترابط عضوي وتسلسل منطقي بين الكلمات والجمل والفقرات والفصول، بحيث إن أي تغيير في وضع واحدة منها، تقديماً أو تأخيراً، يقود إلى تفكك في البحث واضطراب في صياغته، رغم أن أبحاثاً كثيرة تطرح، ولشدة تفككها وعدم تماسكها، فإن بإمكاننا أن نجري تغييراً في مواضع كلماتها وجملها وفقراتها وفصولها دون أن يلحق بالبحث أي أذى، تماماً كما يبني إنسان ما بيتاً كثير الحجرات والردهات، وهو لا يعرف من علم الهندسة المعمارية شيئاً، ومن ثم فإن التفكك والفوضى، وانعدام التناظر واختلال التناسب، سيمكِّن أي إنسان من أن يجري تغييراً في التصميم المرتجل دون أن يلحق بالبيت أي أذى.

إن الكلمة الزائدة التي لا تخدم معنى في الجملة يجب أن تستبعد، والجملة العابرة التي لا تأخذ مكاناً مناسباً في الفقرة يجب أن تُلغى، والفقرة المرتجلة التي لا تؤدي دورها البنائي إزاء رفيقاتها يجب أن تهمل، ومجموع الفقرات التي لا تحمل في طياتها فكرة جديدة أو عنصراً أساسياً في البحث، يجب ألّا تأخذ أية مساحة على الورق..

ليس هذا فحسب؛ بل إن البحث بمجموعه، إن لم يضف جديداً إلى ميادين الثقافة الإسلامية، يجب ألّا يهدر فيه أي جهد بإمكانه أن يصرف في طَرْقِ بابٍ جديد، أو التحرك إلى أفق لم يصل إليه أحد قبلاً، أو يكشف عن حقيقة نحن في أمس الحاجة، في السباق الزمني الراهن، للكشف عنها.. والمؤمنون كما يصفهم القرآن: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾[1]، وأيُّ خير أكثر من أن ندَّخر جهودنا وطاقاتنا المبدعة لكي نسارع بها في ميدان الفكر، بدلاً من أن نجترَّ الأبحاث المتشابهة ونبدأ فيها ونعيد.. وبدلاً من أن نعالج الموضوع الواحد أكثر من عشرين مرة ونحن نتمطَّى أو نتثاءب ونعاني الملل، تماماً كما يحدث لمصلي الجمعة وهم يستمعون إلى خطب أصبحت ـ لتكرارها ـ تبعث على الخدر وتدفع إلى النوم دفعاً؟!

ولنتصفَّح على سبيل المثال أية مجلة إسلامية فإننا سنجد ـ إلا في قلة نادرة منها ـ أبحاثاً وموضوعات مكررة، وبخاصة تلك التي تنشر في (المناسبات الإسلامية) كالمولد والهجرة والإسراء ورمضان والحج والأعياد.. وهي مواضيع تحمل في طياتها خطيئتين بحقِّ الفكر الإسلامي والقارئ المسلم، **أولاهما**: إنشائيتها الفاضحة وعدم احتوائها على قدر كافٍ من الأفكار والتصاميم الذهنية، **وثانيتهما**: تكرارها الآلي وتضييعها لجهود ما كان لها أن تضيع لولا هذا التكرار.

---

(١) المؤمنون: ٦١.

وليس معنى أن يكون المفكر المسلم (مهندساً) دعوته إلى التخلي عن (القيم الجمالية) في معطياته أبداً. . إن (الجمالية) هي إحدى مرتكزات الهندسة نفسها، فالهندسة ـ كما هو بديهي ـ ليست نقيضاً للجمال، بل إن الرياضيات في أساسها ـ وهي التي أقيم البناء الكوني وفق مقولاتها ـ تعد بذاتها تناسباً جمالياً باهراً. ومن ثم يتوجب على المفكر المسلم ألا يغفل، وهو يطرح أفكاره وفق أشد المناهج صرامة في هندسيتها، عن المتطلبات الجمالية التي يقتضيها المنطق الهندسي نفسه. . وهي متطلبات ترتكز على (لغة) قلَّتْ نظائرُها بين اللغات، تتيح للباحث مجالاً انتقائياً واسعاً لتوصيل (أفكاره) بالأسلوب المتماسك والواضح والجميل. . ابتداء باختيار (الكلمات) المناسبة، وانتهاء (بالنَّفَس) اللغوي الذي يعطي للبحث شخصيته (الفنية) المستقلة، مروراً بالتراكيب الجمالية والعبارات والفقرات والفصول. .

إن بعض مثقفينا قد ابتلوا للأسف بالنظرة التجزيئية للمواقف والأفكار والأشياء، وعدموا الرؤية الشمولية التي لا يتم بدونها تقويم موضوعي لأية قضية من القضايا المتجددة في ميادين الفكر والحياة. . وهؤلاء لا يستطيعون إلا أن يفصلوا بين الفكر والجمال، ويقولون: إما هذا أو ذاك. . إما عطاء فكرياً جافاً جفاف القوانين، صارماً صرامة التحاليل العلمية، وعرضاً للحقائق الإنسانية والتاريخية بأبسط الأساليب وأقربها إلى ذهن القارئ، مهما كانت على درجة من الفجاجة والبدائية. . وإما كلاماً فنياً إنشائياً يعتمد مقولات البلاغة وتهاويلها وزخرفها، ويطيل الطريق على القارئ بهذه التهاويل وتلك الزخارف التي لا تحوي في طياتها قيماً حقيقية ولا أفكاراً. .




بين التراث والمعاصرة

١٧

وما دمنا بصدد الحديث عن المسار الثقافي، فإنه يتوجب علينا أن نسأل أنفسنا، ونحن ندلف إلى قرن جديد: أين الأدباء الكبار في عطائنا الإسلامي المعاصر؟ لماذا لم يبرز شاعر كبير أو روائي كبير أو ناقد كبير، كبير على المستويين العربي والإسلامي والعالمي على السواء؟.. لماذا يبرز هؤلاء عبر كل المذاهب والاتجاهات، دينية ووضعية، ولم يبرز عندنا؟

إن أي واحد منا يستطيع إذا شاء أن يعثر على عمل فني أو أدبي كبير يعبِّر عن الموقف اليهودي أو المسيحي أو القومي أو الوطني أو اللوني أو الطبقي.. أعني عَمَلاً كبيراً بمعنى الكلمة، شكلاً ومضموناً.. في الرواية.. في القصيدة.. في المسرحية.. في النقد.. وفي أي فن يعتمد الكلمة المعبرة جسراً لنقل التجربة والرؤية البشريتين إلى الآخرين..

من منا لم يسمع ـ على سبيل المثال ـ بشاعر المقاومة الفرنسي (أراغون)، وبالقاصِّ الروسي (غوركي)، وبالروائي الماركسي (شولوخوف) أو غريمه الليبرالي (باسترناك)، أو بشاعر الشيوعية (مايكوفسكي)؟ ومن منا لم يسمع برواية (جيورجيو) (الساعة الخامسة والعشرون)، أو بقصة (هنري سبرويا) (الحقيقة ولدت في المنفى) ذات الإيحاء المسيحي الشعري العميق؟ وغير هؤلاء من الذين لم نورد أسماءهم إلا على سبيل المثال، عشرات بل مئات..

لا يقل أحدكم: إن هذا بسبب هزائمنا المستمرة في العقود الأخيرة، وبسبب الضغوط الثقافية والسياسية الهائلة التي لا تطاق، والتي سلطت بكل أسلوب لسحق أي نشاط إسلامي وقتله في المهد!! لأن الأدباء الكبار يبرزون دائماً في قلب الهزائم.. وعلى وهج النار الممحصة تلتمع قرائحهم كالنجوم المتلالئة في أعماق الليالي؛ لكي تبثَّ ضوءها الأزرق الجميل على الكائنات، وتمنح إبداعها وروعتها لكل راءٍ.

ولا يقل أحدكم: إن ذلك يكمن في موقف الإسلام نفسه.. فمن العبث وقد انتصر الإسلام بقوة (الكلمة) القرآنية المعجزة في قدراتها التعبيرية، وفي جماليتها الساحرة شكلاً ومضموناً، أن نناقش رأياً سخيفاً كهذا!!

وباستطاعتنا جميعاً بعد تهافت هاتين الحجتين، أن نبحث عن الأسباب.. وأكبر هذه الأسباب يكمن في مثقفينا أنفسهم، في تكوينهم الفكري وتجربتهم النفسية، وفي قوائم الكتب التي يطالعونها.. إن معظم هؤلاء الذين نسميهم ـ تجاوزاً ـ بالمثقفين، لا يقرؤون، منذ لحظة تفتح وعيهم على القراءة، واتصالهم الوثيق بالكتاب، إلا الكتب التراثية.. ولا يتوسَّعون وينفقون ساعاتهم الغالية إلا في نطاق معطيات القرون الأولى.. فإذا ما قرؤوا أدباً فإنهم لا يقرؤون إلا للجاحظ أو ابن المقفع أو ابن عبد ربه أو الأصفهاني أو ابن الجوزي.. وتراهم غادين رائحين إلى الكازينوات والمكتبات والنوادي وهم يحملون، محنيي الظهور، منكسري الأنفس، مجلدات التراث المغبرَّة، الصفراء، تلوك ألسنتهم باعتزاز كتاب (الحيوان) أو (صفة الصفوة) أو (البيان والتبيين)..

إنهم يعيشون في عصر آخر غير عصرنا.. لقد توهَّموا أو أوهموا أن الفكر الحقيقي لا يخرج عن نطاق تراثنا أبداً، وأن الذي يريد أن يتثقف ـ بحق ـ فإن عليه أن يتجاوز معطيات الإنتاج المعاصر، وألا يشغل نفسه به لحظة واحدة، فكراً كان أم أدباً أم فلسفة أم فنّاً..

والحق أننا نستطيع أن نتلمس في نفوس هؤلاء إحساساً مزدوجاً ما كان لهم أن يقبلوه لحظة واحدة.. إنهم ـ من جهة ـ يرون أية مطالعة في معطيات الفكر والأدب الحديث خطيئة ودنساً لا ينسجمان وحسهم الديني ونظرتهم الروحية إلى الحياة.. وهم من جهة أخرى يرون المطالعة في كتب التراث نوعاً من التطهر والتقوى، يتقربون بها إلى الله.. فما دمت أرهق نفسي في مطالعة كتاب ـ يقول أحدهم ـ فلماذا أقرأ كتاباً يبعدني عن الله؟ ولماذا لا أجعل عملية المطالعة نفسها جزءاً من عبادتي وتقواي؟ ثم ماذا تكون النتيجة؟ إنها هذا الفراغ المحزن الذي نراه في عطائنا الأدبي المعاصر.. إن هؤلاء المثقفين، وقد عاشوا عصراً غير عصرهم، وتعاملوا مع كلمات وتعابير كانت مناسبة لبيئتها، مستجيبة لمتطلباتها التعبيرية، لكنها غدت غير مناسبة لبيئتنا نحن، مستعصية على متطلباتنا وبداهاتنا التعبيرية.. سرعان ما يجدون أنفسهم بعد رحلة سنين طويلة في ميدان العلوم النقلية وكتب التراث، غير قادرين بالمرة على أن يكتبوا حرفاً واحداً أو يبدعوا أثراً أدبياً باقياً.. وكل ما يستطيعه أي واحد من هؤلاء، كل ما جناه من سني الكد والسهر والعناء، هو أن يبدي إعجابه المتزايد بديباجة ابن المقفع، وجزالة الجاحظ، ونقدات ابن الجوزي!!

وهذا التشبث (المتحفي) بالتراث، والانقطاع المحزن عن تيار الفكر المعاصر وصخبه واندفاعه وحيويته وتمخضه الدائم، لا يسلب مثقفينا هؤلاء القدرة على التعبير فحسب، ويجرِّدهم من أداة التواصل الإبداعي مع الناس، إنما ـ وهذا هو الأخطر ـ ينفي أية تجربة وجدانية أصيلة في نفوسهم، ويجمِّد أي تفجر إبداعي في تجربتهم الذاتية، ويصدهم بالكلية عن النظر إلى أعماقهم حيث يكمن الموقف الحقيقي الذي يصنع الآداب ويبعث الفنون، ومن ثم فهم يخرجون على الناس، بعد رحلتهم الخارجية (الساكنة) مع التراث، وقد انفصمت شخصيتهم، فانهال غبار القديم على ذواتهم الباطنية

الأصيلة ولم يعودوا يرون ويتعاملون إلا مع شخصيتهم الثانية المتحفية المعلقة دوماً على رفوف المكتبات القديمة، والمتأبطة ـ أبداً ـ كتب أناس ماتوا منذ مئات السنين ولم تعد معطياتهم تبعث رجفة الإبداع والتدفق في نفوسنا، لأنهم عاشوا في عصر غير عصرنا، وكتبوا بلغة غير لغتنا. .

باختصار، إن مثقفينا لم يمتلكوا مقومات التجربة الإبداعية الذاتية التي تنفجر عن الرؤية الإسلامية، قصة أو رواية أو مسرحية أو قصيدة أو عملاً نقدياً. . التجربة التي كبتها التحرك الطويل في الدهاليز المظلمة، وحنَّطَتْها الروح المتحفية الساكنة، وفصمها عن الواقع المتغير ذلك التشبث بالعصور القديمة والذي قرب بأصحابه حيناً من الوثنية الفكرية والعبودية التي لا تعرف التحرر من أسر التراث. .

والبديل الذي نسدّ به بعض مساحات فراغنا الأدبي المعاصر، معروف. . أن يتحرر مثقفونا من عبوديتهم للتراث، وأن يستأصلوا من نفوسهم عقدة الخطيئة إزاء معطيات الأدب العالمي الحديث. . أن يعيشوا عصرهم ويعتمدوا لغتهم. . أن يعودوا إلى ذواتهم لكي ينظروا فيها ويعمقوا وعيها الباطني وتجربتها الإبداعية التي تكمن وراء أي عمل أدبي أو فني كبير. . وقد علّمنا رسول الله ﷺ «أن الحكمة ضالة المؤمن؛ أنى وجدها فهو أحقّ بها. .». .

ولن يحمل هذا الكلام أي معنى لدعوة ترفض التراث بالكلية؛ لأن معنى هذا التنازل عن شخصيتنا التي تميزنا عن الأمم والتنكر لماضينا الذي نستمد منه القدرة على البقاء. . ولن يقول بهذا إلا خائن أو مهووس. . والذي نطرحه شيء غير هذا بالمرة. . ويبقى البديل هو أن نعيش عصرنا من خلال رؤيتنا الإسلامية وحدها. . وألا يستعبدنا التراث. .

الكلمة.. سلاح التغيير

١٨

ونحن نتحدث عن الأديب الإسلامي تحضرنا مقولة سارتر: «إذا لم يكن الأديبُ حليفاً للمظلومين فلن يكون إلا شريكاً للظالمين»..

ويسأل المرء نفسه: من أحرى من الأدباء الإسلاميين بالتزام هذه المقولة؟ من أجدر منهم بمعرفة حقيقة أنهم إن لم يكونوا مع المظلومين كانوا مع الظالمين؟!

إنه لا يوجد موقف وسط بين الحق والباطل، ساكن غير متحرك.. إن الإنسان والأديب، بالأحرى (الكلمة)، فعل، كما يقول سارتر نفسه، لا يعدو أن يكون مع الظالم أو المظلوم، تبريراً للظالم أو إنصافاً للمظلوم.. إن الكلمة (تغيير)، هي في فاعليتها تذكرنا بحديث الرسول ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»!!.. فالكلمة هي الحد الوسط بين اليد وبين الرفض الباطني الصامت.. وهذه الأفعال الثلاثة ـ على كل حال ـ تمتلك القدرة على التغيير.. إن الرفض الصامت هو الآخر (عمل) من أجل التغيير.. تهيئة وتمهيد للكلمة الغاضبة واليد الضاربة.. ومن ثم فإن موقف الأديب هو تحميل الكلمة كل ما تستطيع حمله في عملية التغيير.. وهو تغيير (ديناميكي) أبدي ما دام هناك ظالم ومظلوم.. وقد طرح رسولنا ﷺ هذا البعد الديناميكي لكي يغطِّي كل زمان ومكان دونما توقف. والمعروف

والمنكر يصطرعان، ويتبادلان المواقف كاصطراع الليل والنهار وتبادل الشمس والقمر. . والجهاد ماضٍ ـ بتعبير الرسول ﷺ ـ إلى يوم القيامة. .

وهنا نلتقي مع كل حركة (التزام) تسعى إلى تحميل الكلمة مسؤوليتها في تاريخ الإنسان وحركته صوب الحق والعدل، ولكننا نفترق مع هذه الحركات (كالماركسية والوجودية. .) في تحديد طبيعة الظلم ومساحته، فالشيوعية ترى مساحته مقصورة على حاجة الإنسان إلى الطعام. . على طاغية يتخم وفقير يموت جوعاً. . والوجودية تراها كذلك بدافع مركب نقصها إزاء الماركسية، وتضيف إليها مسألة (الحرية) المتبادلة بالالتزام. . والكلمة تجيء إذاً لتعزيز حرية الإنسان وهو يناضل من أجل أن يسمح له أن يكون (موضوعاً) ديناميكياً لا (ذاتاً) ساكنة (إستاتيكية). . دون أن يدري هؤلاء أن إطلاقاً كهذا يقود إلى ارتطام الحريات والمشاريع والذوات المتحركة اعتماداً على فردية الإنسان وتوحده وعدم تشابهه ـ أساساً ـ مع الآخرين. .

أما الإسلام فيرى أن الظلم الواقع بالإنسان يشمل دائرة أوسع بكثير من دائرة الحاجات الأساسية المكبوتة، أو الحرية التي تحيل الإنسان إلى (مشروع) دائم التغيير والتمخض، دون أن يرتكز على قيم ثابتة ومحور واحد، مما يؤدي حتماً إلى التشتت والتميع والضياع الذي نجده واضحاً في التطبيق العملي للوجودية وفي الترجمة اليومية للنظريات التي يقول بها الوجوديون. .

الإسلام يرى أن (الظلم) هو في إخراج الإنسان عن موقعه (الطبيعي) والأساسي في خارطة الكون، في تدمير انسجامه مع نواميس العالم والخليقة، في تحويله عن (حريته) و(توازنه) و(توحده) إلى العبودية والتأرجح والتمزق. . وهذا إنما يجيء ـ دوماً ـ على يد (الفئة) أو (الطبقة) أو (الجماعة) أو (الفرد) الذي يسعى إلى إلحاق هذه المآسي بالإنسان من أجل أن يتألّه هو في الأرض، ويحقق مطامحه على حساب بني آدم. .

وهو، أو الطبقة أو الفئة، لن يهمه، أو يهمها، النتائج المتأتية من جراء هذا (الظلم) النازل بإخراج الناس عن مواقعهم الطبيعية وانسجامهم، وتدمير توازنهم وتوحدهم وحريتهم، ما دامت النتيجة في صالح الفئة أو الفردية التي انتزعت لنفسها حق القيادة والتأله.. وسحبت صفة العبودية على جميع الناس لكي يتحوَّلوا إلى قطيع لا تزيد فاعليته في الأرض على تقديم عطائه وجهوده ثماراً سائغة للقلة المترفة المستعبدة..

ومن ثم فإن دور الأديب المسلم والمفكر المسلم هو الحركة الملتزمة جانب المظلومين جميعاً؛ من أجل عودتهم إلى مواقعهم الطبيعية وانسجامهم، ومن أجل استرداد حريتهم وتوحدهم وتوازنهم، والجهاد الدائم ضد كل الطواغيت الذين يسعون في الأرض فساداً، ويؤلِّهون أنفسهم من دون الله، ويستعبدون الناس ظلماً وزوراً..

هذا الموقف الملتزم الذي يعمل على أوسع مساحة عرفها الصراع بين الظالمين والمظلومين، مروراً بمسألة الطعام والشراب والعدل الاجتماعي والحرية، وانتهاء بالأفق الواسع الذي يختفي فيه الظالمون جميعاً، ويتحرر المظلومون من قيود القهر والعبودية.. ومن هنا نجد تنبيه القرآن الكريم دوماً إلى أهمية الأخذ على يد هذه الفئة الظالمة، وإلا عمَّتِ البلوى كل الناس ظالمين كانوا أو مظلومين: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[1]، ومن هنا ـ كذلك ـ أكد القرآن على أن الشعر الحقيقي هو الشعر الملتزم قضية الإيمان والانتصار على الظلم: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝٢٢٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝٢٢٥ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝٢٢٦ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾[2].. وهذا هو أصدق تعبير عن مسألة التزام الكلمة، لكونها لا تحمل إيجابياتها

---

(١) الأنفال: ٢٥.

(٢) الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٧.

إلا بأن تكون (فعلاً) يلتزم ويثور. . يؤمن ويتحرك. . ويظل دائماً على خط المظلومين حتى يتحقق لهم الانتصار على الظالمين. .

١٩

والشباب المسلم هم الذين سيبدؤون صياغة العقود الأولى من القرن الجديد. . وهذه الكلمات موجهة إليهم. . ومن دمائهم الحارة وإخلاصهم العميق تكتسب دفقها وإخلاصها ووضوحها. .

تماماً كما انتصر أجدادنا عبر معارك القرون الماضية فإننا سننتصر مرة أخرى عبر معارك القرن الجديد، بمجرد أن نستكمل الأسباب: إيماناً جادّاً، وعزيمة صادقة، وعطاء دائماً، وإعمالاً مبرمجاً للقدرات والطاقات التي منحنا الله إياها. . وما أكثرها وأغزرها لمن يعرف كيف يفيد من منحة الله!!

إنه ليتوجب علينا أن نتعلم من تجربة التاريخ. . وإن القرآن الكريم ليذكرنا بهذا المرة تلو المرة: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[١]، ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[٢]، ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾[٣]. . وحينذاك سنعرف، ونحن نقف قبالة قرن جديد، كيف نفيد من عامل الزمن، وكيف ننطلق إلى أهدافنا بإدراك أشد إضاءة وفهم أكثر عمقاً. . ولن يستطيع أحد أن يذلنا ويفرض علينا مواقع التبعية والصغار. . فالذي تخرجه مدرسة الأربعة عشر قرناً لا يمكن أن يذلّ ويخضع، والذي يتربَّى في جامعة القرآن لا يمكن إلا أن يكون عزيزاً ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤].

(١) الأنعام: ١١.
(٢) النمل: ٦٩.
(٣) الروم: ٤٢.
(٤) المنافقون: ٨.

وإننا إذ نقف على أعتاب القرن الخامس عشر؛ فمعنى هذا أننا نملك خبرات أربعة عشر قرناً.. وما أعمقها وأغزرها من خبرات. وسواء كان إبحارنا عبر مسالك القرن القادم في مجالات البناء والتقدم والإعمار أم في مساحات الجهاد والتضحية والفداء.. فإن لنا في تاريخنا أسوة حسنة تعلمنا كيف يكون العطاء في السلم والحرب على السواء..!

إن الأجيال التي سبقتنا على الطريق الطويل لم تألُ جهداً في هذه الجبهة أو تلك، وإن علينا أن ننطلق عبر العقود القادمة بسرعة أكبر، بما نملكه من تراكم في الخبرة، وبما تحتمه علينا معضلة تجاوز الفارق الزمني الحضاري بيننا وبين الخصوم.. وبما يأمرنا به ديننا من ضرورة المسابقة في العطاء؛ حيث تغدو في معاييره الأصيلة جزءاً من مطالب الإيمان ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[1]، ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[2]، ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[3]..

وإذاً فإن ثمة ما يملأ قلوبنا بالأمل ويترع نفوسنا باليقين.. إن القرن القادم ـ إذا عرفنا كيف نعد العدة ـ سيكون قرناً أكثر من سوابقه أهمية وحسماً في تغيير خارطة العالم، فيما يعيد لهذه الأمة المبعثرة، الممزقة، المنكودة.. الكثير مما فقدته عبر قرنها الراهن هذا، حيث قعر الهزيمة بتسلط يهود على رقاب المسلمين!.

إن العالم كله ينتظر اليوم إشارة الخلاص..

ليس ثمة مكان في هذا العالم لا يتعذب اليوم.. إنه، وقد آثر منذ قرون

(١) الأنبياء: ٩٠.

(٢) آل عمران: ١١٤.

(٣) المؤمنون: ٦١.

بعيدة التمرد على هدى الله وشريعته، كان لابد أن ينال عقاب تمرده وعصيانه..

إنه عقاب الفطرة لمن يتمرد على الفطرة..

وعقاب الطبيعة لمن ينشق عن نواميسها..

وعقاب الكون لمن يبحر ضد سننه..

وعقاب الله لمن يتحدَّى كلمته التي لا رادَّ لها..

لقد طفّ الصاع وبلغ السيل الربى.. وإننا بمجرد أن نمر مسرعين على صحف العالم ووسائل تعبيره.. سنرى بأم أعيننا ونلمس بكلتا يدينا ما يعانيه العالم من عذاب وما يحيط به من فساد، فها هي المقولة القرآنية تبرز ثانية في قرننا هذا ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1].

ولن يكون الرجوع إلا بهذا الدين..

إن العالم كله ليس بأقل حاجة من المسلمين أنفسهم إلى (منهج) يعرف كيف يعلو بهم على العذاب والفساد.. كيف يضعهم في قلب دنيا جديدة نظيفة التربة، نقية الهواء، ممتدة الآفاق.. وإن القرن الخامس عشر هو قرن التجربة حقاً.. وإنه لجهد مزدوج يتوجَّب على المسلمين أن ينوؤوا بحمله الصعب: العودة بأنفسهم وبالعالم كله إلى مرافئ الإيمان السعيدة، المتوحدة.. من أجل حياة أجدر بالإنسان..

فليكن القرن القادم قرن الكدح اللاحب والعطاء الموصول والبذل السخي الذي يكسر الحلقة المفرغة التي تحيط بالعالم.. ويخرج به من ضيق

(١) الروم: ٤١.

الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

٢٠

فيا أيها المسلمون في كل مكان..

هنيئاً لكم عيدكم الكبير هذا وأنتم تقفون على بوابة القرن الخامس عشر من عمر دينكم العظيم.. تتحركون صوب القرن القادم، الذي ستصنعون تاريخ عقوده الأولى، بأمل عميق، وعزم صادق، وتصميم مخلص أصيل..

إنكم أحفاد أولئك الرواد الكبار الذين ملؤوا أربعة عشر قرناً من الزمن بالإنجاز.. والإبداع.. والمجازفة.. والكشف.. والتحقّق.. والانتصار..

ولن يعجزكم شيء إذا خلصت النية واشتعلت فتيلة الإيمان.. إن جيلاً يتسلم الراية ليمضي بها صوب قرن جديد لهو جيل سعيد بالموقع الذي وضعته إرادة الله فيه.. وإنه لشرف عظيم أن تحمل سواعدكم كتاب الله وسنة رسوله إلى عالم مرهق مكدود، يتحرك منذ زمن بعيد في طرق مسدودة ويطرق أبواباً مقفلة لن ترد ولن تستجيب..

ولن يكون الباب الوحيد المفتوح سوى باب هذا الدين.. وإنه لقدير حقاً على أن يستوعب البشرية المطحونة كلها.. دخولاً إلى الساحة الوضيئة، المتوحدة، التي تطهّر وتسعد وتزكي..

ولن يدخل أحد من بابكم الكبير ما لم تعلموه كيف يكون الدخول..



(١) الحج: ٤٠.

على البوابة..
وقفة سريعة..


@Ahmedyassin90

المهمة غير المستحيلة

٢١

إن مهمتنا في انبعاث حضارتنا الإسلامية في دورة جديدة من التاريخ مهمة غير مستحيلة. .

لا أقول ـ وقد كدت أقول ـ إنها مهمة سهلة. . ولكن ـ مع ذلك ـ فهذه المهمة ـ رغم صعوبتها ـ ليست مستحيلة ولا شبه مستحيلة. .!!

إننا لن نبدأ من فراغ؛ فإن أصول حضارتنا ثابتة وموجودة وواضحة. . وإن من بين أيدينا كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، نستطيع أن ندور في فلكه دون أن نزيغ أو نضلّ. .

ولدينا تجارب حية واقعية أثبتت صلاحية ديننا، وقدرته على التحدي والإبداع، والصمود، والتفوق، على كل عوامل الاندثار الحضاري!!

وقد واجهنا ـ في مراحل تاريخنا ويوم ظهرنا على الأرض ـ حضارات كبرى كان الفارق بينها وبيننا هو الفارق نفسه الذي يفصلنا الآن عن حضارة العصر، بل ربما كان الفارق أكثر، وكان التحدي أكبر.

وبهذا الدين، وما يضمه بين أصوله وفروعه من قابلية متجددة للعطاء الحضاري، والانبعاث المستمر، قبلنا كل التحدِّيات، واستجبنا لها. . ولم ننهزم أمامها، أو نتعامل معها من موقع الدونية، فنقيس ما عندنا إلى ما عندها، ونزن ما لدينا بما لديها. . بل العكس هو الصحيح. . لقد وضعناها

بكل أفكارها وعطاءاتها على مقياسنا وميزاننا، وقبلنا ما ينسجم معنا ورفضنا ما ترفضه موازيننا..

إننا لم نقف كما يريد بعض مهزومي هذا العصر موقف المحاكي والمقلد.. فهذا الموقف ـ غير الحضاري ـ لو وقفناه لما كانت لنا حضارة ذات ملامح وأصول إسلامية، ولكنّا قد ذبنا كغيرنا.. بل إننا من نقطة الإحساس الإسلامي الأصيل والوعي الحضاري الرشيد هيمنَّا على هذه الحضارات.. وكنا الشهداء عليها والمميزين بين ثمينها وغثها..

وقد اختلفنا في الرأي حول كثير من الموضوعات، وتعددت في أيدينا أساليب المواجهة.. واختلفنا حول أولوية هذه الأساليب.. فمن عقلاني إلى نَصِّيٍّ، ومن نصِّيٍّ ظاهريٍّ إلى نصِّيٍّ مؤوَّلٍ.. وفي العقيدة والفقه واللغة والتفسير والاقتصاد.. اختلفنا.. لكن المهم ـ كما يقول كاتب معاصر ـ أن أسلافنا على الرغم من هذه الاختلافات يجعلونك تحس أنهم كانوا كالذين يتبارون على ملعب واحد، يلتزمون روحاً واحدة، وقواعد متفقاً عليها، ومن هنا أمكن أن تكون لهم ثقافة موحدة الروح، وإن تباينت جوانبها، وظواهرها[1]..

لقد واجهوا كل المواقف.. بموقف مضاد يمتاز بأنه (فعل) و(دائم) و(شامل)، وليس مجرد (رد فعل) (وقتي) (جزئي)..

- فعندما استحر القتل في القراء، وخافوا ضياع القرآن جمعوه في المصحف.. هكذا كان موقف أبي بكر.

- وعندما أحسوا بأن للشعر الجاهلي صلة بالإعجاز القرآني البياني، فالشعر ديوان العرب، أمر عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بالاهتمام

---

(١) د. زكي نجيب محمود: مجتمع جديد أو الكارثة، ص ٣٣١.

بالشعر، وقال للناس: عليكم بديوانكم لا يضل، قالوا: ما هو؟ قال: شعر الجاهلية فيه معنى كتابكم!!

- وعندما خشي عثمان (رضي الله عنه) اختلاف الناس جمع القرآن الكريم في مصحف واحد، وأحرق ما دونها.. فكان عمله من أفضل الخدمات لديننا ولحضارتنا.. وقد منع عنا ـ جزاه الله وإخوانه خيراً ـ ما وقعت فيه النصرانية من تبديل وتحريف!!

- ولما شاع اللحن أمر علي (رضي الله عنه) أبا الأسود الدؤلي بوضع قواعد النحو..

- ولما أحسوا بعجزهم منفردين عن تفسير القرآن ابتدعوا علم التفسير.

- ولما ظهر الوضع في الحديث ابتدعوا علم الجرح والتعديل، وجمعوا الأحاديث، وأخضعوها لمنهج علمي من أدقِّ مناهج النقد التاريخي.

- ولما خرجوا من الجزيرة وواجهوا نحلاً باطنة كثيرة وبقايا وثنيات تأبى أن تزول؛ ابتدعوا علم الكلام الذي أدى دوره كاملاً في عصورهم..

- وفي مواجهة مسائل الحياة المتجددة أنشؤوا علم الفقه.. والمذاهب.

- وعندما أحسوا بالحاجة أثناء أسفارهم وفتوحاتهم إلى معرفة القبلة والوقت دوَّنوا علم الهيئة..

- وعندما أحسوا بالحاجة الاجتماعية إلى العد والحساب وضعوا علم الحساب.. واخترعوا الصفر!!

ولن نستطرد في ذكر هذه المواقف الحضارية الإيجابية الرائدة، وإنما حسبنا أن نشير إلى نوعية أسلوب المجابهة الذي التزمه أسلافنا.. إنه أسلوب الحل الأصيل الشامل المتفوِّق، وليس الحل الانهزامي الذي يسعى إلى الترقيع والتقليد!!

٢٢

إن قدرة حضارتنا على الانبعاث والاستئناف فريدة في التاريخ.. فقط أن تتوافر الإرادة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾(١)... إنها من هذا الجانب حضارة معجزة..

ففي أقل من نصف قرن من إيمان رجل واحد بها.. كانت جيوشها تدك أعتى عروش الظلم، وكانت تستقبل في فارس والروم ـ وهما أرقى حضارتين ـ استقبال الهمجية للحضارة، والغابية للإنسانية.. ولم يعرف في التاريخ أن حضارة تنبعث في مثل هذا الظهور المفاجئ، وهذه الطفرة المعجزة..

حضارة تنبعث هكذا واقفة على أقدامها لها أصولها وجذورها الضاربة في كل فكر وفي كل ركن..

حضارة تبرز كالبناء الكامل القائم على أسس راسخة.. ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٌ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾(٢)..

ويحار المستشرقون في تفسير هذه الظاهرة الشاذة في التاريخ الحضاري!! ومن حقهم أن يحاروا لأنهم لا يؤمنون ـ بل لا يعرفون ـ إلا الدفعة العرجاء للمادة.. أما دفعة الروح الهائلة.. فهم لا يريدون ـ وربما لا يستطيعون ـ أن يؤمنوا بها..

يقول أحد أبناء الحضارة الأوروبية الذين نجحوا ـ بعد جهاد مرير ـ في الانسلاخ منها.. مصوراً هذه الحقيقة التي تتميز بها الحضارة الإسلامية من بين سائر الحضارات..

---

(١) الرعد: ١١.

(٢) إبراهيم: ٢٤، ٢٥.

يقول ليوبولد فايس (محمد أسد) بعد أن يستعرض القرون الطويلة التي تكونت فيها مقومات الحضارة الأوروبية مما ورثته عن حضارة اليونان والرومان وما خلفته لها المسيحية.

وبعد أن يستعرض ـ كذلك ـ الأحقاب الطوال التي تكوَّنت فيها حضارة الرومان، والزمن الذي استغرقته حضارة الهندوس التي امتدت بها سدم الماضي إلى السومريين، والأجيال التي امتصت عصارتها حضارة العبرانيين التي اتصلت بحضارة الكلدانيين والبابليين والمصريين والحيثيين!!

وسفائن التاريخ التي امتطتها حضارة الصين، وحضارات بابل وإيران وآشور.. يقول (محمد أسد) بعد هذه الرحلة في أصول الحضارات:

«ولكن هناك استثناء واحداً لكل ما أسلفناه من قول، استثناء كادت لغرابته أن تذهل العقول وتنعقد الألسنة، فلم يذكر تاريخ البشر فيما عرفه الناس من حضارات سوى حضارة واحدة برزت للوجود من عالم الغيب دفعة واحدة، واستوت للناظرين قائمة على أصولها في فترة محدودة من تاريخ البشر؛ تلك ولاشك حضارة فذة من نوع فريد.. إنها لحضارة الإسلام!!

فلئن قامت كل الحضارات الأخرى ونشأت رويداً رويداً من تراث الماضي بما حوى من ضروب الرأي وتيارات الفكر، واستغرقت في تبلورها إلى شكلها الخاص وكيانها المحدد آماداً طويلة من الزمن، فلقد انفردت حضارة الإسلام وحدها بانبجاسها إلى الحياة دون سابق عهد أو انتظار.

وقد جمعت هذه الحضارة، من فجر نشأتها، كل المقومات الأساسية لحضارة مكتملة شاملة.. فقامت في مجتمع واضح المعالم، له نظرته الخاصة إلى الحياة، وله نظامه التشريعي الكامل، وله منهجه المحدد للعلاقات بين الأفراد، بعضهم ببعض داخل هذا المجتمع.

ولم يكن قيامها ثمرة تقاليد زخر بها الماضي، ولا وليد تيارات فكرية متوارثة، ولكن هذه الحضارة، كانت وليدة حدث تاريخي فريد هو تنزيل القرآن الكريم، وكان مردها إلى رجل فذ في التاريخ هو محمد رسول الله ﷺ»[1].

٢٣

وهذا الذي ذكره محمد أسد، والذي ذكرناه أيضاً، إنما يتعلق بمقومات هذه الحضارة وأصولها العقدية والثقافية والاجتماعية ونظرتها للكون وصياغتها للحياة..

إنها أصول ثابتة وواضحة يستطيع أن يقوم عليها البناء الحضاري التطبيقي ـ في أية فترة من التاريخ ـ متى توافرت الإرادة البشرية، وانسجمت عناصر الإبداع، من إنسان وعقيدة وتراب وزمان..

وفي هذا المستوى فإن الحضارة الإسلامية تنمو كما تنمو كل الكائنات الحية، ويبرز الدور البشري الذي يجسد فكر الحضارة وقيمها، ويعطيها طابعها العام الذي ينساب في كل جزئياتها..

فلئن كانت الحضارة اليونانية قد امتازت بالطابع المنطقي الجدلي، وجاء الرومان فامتازوا بالطابع القانوني وعبادة القوة، ثم جاءت الحضارة الأوروبية فتميزت بالطابع المادي على الرغم من بعض الاختلاف في الملامح الخاصة لأجناسها من سكسون تجريبيين، إلى فرنسيين رياضيين، إلى ألمان يتميزون بالطابع الميتافيزيقي، إلى أمريكان يتميزون بالطابع النفعي (البرجماتي)!!

لئن كان لكل حضارة طابعها الذي ينظمها على هذا النحو، فإن

---

(١) الإسلام والتحدي الحضاري، دار الكاتب العربي، بيروت، ص ١٩.

للحضارة الإسلامية طابعها الذي يتجلَّى عند التطبيق، والذي يميزها عن بقية الحضارات.. ويعطيها أهميتها في التاريخ..

- إنه طابع الإنسانية، والأخلاقية في مستوى الواقع البشري.

- وإنه طابع التوحيد في مستوى العلاقة بالله.

- وإنه طابع الحق والعدل في كل أمر من الأمور وكل علاقة من العلاقات..

- وهذه هي الحضارة «الحتمية» لعالمنا المعاصر!.

وإن استئناف مسيرتها لأمانة في أعناق المسلمين.

وسوف يسألون!!

خطأ في المنهج (تشخيص الأعراض.. لا الأمراض)

٢٤

من بين الكتابات الكثيرة التي صدرت في القرن الرابع عشر عن (أسباب تخلف المسلمين) لم نجد ـ باستثناء قلة رائدة على رأسها أبو الأعلى المودودي وسيد قطب ومالك بن نبي ومحمد أسد[١] ـ من حاول تشخيص الأمراض.. وإنما ساد أكثرهم منهج (تشخيص الأعراض) دون النظر إلى الأمراض اللهم إلا عرضاً.. وإن كثيراً منهم ليخلطون بين الأمراض والأعراض بطريقة توحي بأن المنهجية ـ في التحليل ـ عملية مفقودة، وأننا نتناول أكثر القضايا خطورة بالمنهج نفسه الذي يملأ به الصحافيون أبوابهم الثابتة في الجرائد والمجلات..!!

وحتى كثير من المؤرخين ـ سامحهم الله ـ غلب عليهم منهج السرد، والحديث عن الظواهر العارضة دون دراسة ما وراءها من أسباب كامنة..

وفي كل الدراسات والأبحاث التي حاولت أن تعالج أسباب تخلف المسلمين رأينا التركيز على:

- الغزو الفكري.

---

(١) في كتابيهما: شروط النهضة، والإسلام على مفترق الطرق.

- الاستشراق.
- الجمعيات السرية والماسونية والروتارية والخلايا الشيوعية وغيرها.
- التبشير.
- سقوط الخلافة العثمانية.
- إحلال القوانين الوضعية محل الشريعة.
- سقوط مكانة المرأة في المجتمع الإسلامي.
- تحول المسجد إلى معبد وانحسار رسالته.
- سقوط الحجاب وظهور السفور واختلاط الجنسين.
- سيطرة الأيدي الخفية على التعليم في جميع مراحله.
- ظهور الدعوات الإقليمية واللا دينية.
- تبني الإعلام محاربة الله ورسوله والمؤمنين.
- سيطرة البنوك الربوية على الحياة الاقتصادية.
- سقوط العالم الإسلامي عسكرياً واقتصادياً وثقافياً.
- ظهور دولة إسرائيل وضياع القدس الشريف.
- تكريس الهزيمة والفرقة والضياع رسمياً[١]..

٢٥

وعند النظر الفاحص نجد أن هذه الشوائب وغيرها إنما هي أعراض لا أمراض، والمنهج السليم والعلمي أن نبحث عن أسباب الأمراض لا عن

(١) انظر: محمد كاظم حبيب: مجلة البلاغ، مقال: أقيموا دولة الإسلام في بيوتكم (بتصرف).

أعراضها. . فإن ضعف الجسم نتيجة وليس سبباً. . وقد يكون وراء ضعفه أسباب مختلفة. . فلربما كان السببُ فقراً في الغذاء، أو سوء تنظيم في برنامج العمل والراحة، أو تلوثاً في الهواء، أو إجهاداً نفسياً وفكرياً، أو غير ذلك. . وعندئذ يكون العلاج أن نعالج المرض الأصلي بما يناسبه. . وبالتالي تزول ـ من نفسها وبتأثير عودة الجسم إلى حالته الطبيعية ـ هذه الأمراض الطارئة والظاهرة. .

وإنما سقطت خلافة العثمانيين، وإنما نجح الغزو الفكري والاستشراق، وإنما فرض الخديوي إسماعيل باشا القوانين الوضعية، وإنما سيطر التبشير واليهود على الإعلام والتربية، وإنما سفرت المرأة، وسقطت مكانتها (كما سقطت مكانة الرجل!!)، وسيطرت البنوك الربوية، وظهرت إسرائيل في فلسطين، وروسية في أفغانستان واليمن والصومال. .

إنما وقع كل ذلك ـ وغيره ـ لأن هناك حالة (قابلية للاستعمار) (حسب تعبير مالك بن نبي) قد أصيب بها الإنسان المسلم.

والعلاج الصحيح والوحيد أن نزيل هذه القابلية للاستعمار، وأن يُبنى المسلم ـ من جديد ـ وفق برنامج يكفل له التفوق الحضاري ـ علمياً وخلقياً ـ ويزرع فيه العزة التي تستعصي على هذه القابلية للذل وتستطيع ببنائها الذاتي طرد الجراثيم المضادة.

إنه لخطأ كل الخطأ ـ في منهج الفكر الإسلامي الحديث ـ أن نكتب عشرات الكتب عن الأعراض ـ مستسهلين هذا الطريق ـ ولا نكلف أنفسنا عناء الغوص في أعماق القوانين الحضارية التي هي من سنن الله الكونية والاجتماعية، لنعرف حقيقة الداء الذي أصيب به الإنسان المسلم حتى فقد قدرته على البقاء في حلبة الصراع الحضاري، وقدرته على التوازن في مواجهة العواصف، وقدرته على تقديم أي شكل من أشكال الحضارة.

ولقد رضي الإنسان المسلم بهذه الحالة الهابطة التي تجعله طفيلياً يأخذ من حضارة العصر غثاءها، وخواءها، ويترك طيبها وجميلها.. تماماً كما تفعل الديدان والكائنات المنحطة!!

والكارثة الكبرى.. أنه لا يحسُّ بالكارثة!!

سياسة عقيدة ودعوة

٢٦

في التاريخ الإسلامي غبار كثير تراكم، مندرجاً من البسيط إلى المركب، حتى أصبح خلال قرننا الرابع عشر المنصرم قوالب حجرية جامدة يصعب زحزحتها عن مواقعها.

إنها قوالب نمت في مسيرتنا التاريخية كما تنمو الأتربة التي سرعان ما تصبح أكواماً تحجب الرؤية، وتفرض نفسها، كجزء من الحقيقة الأرضية، بينما هي في أصلها أمشاج متناثرة وفدت من كل الأصقاع، وحملتها مختلف الأعاصير، كما يُحمل كل عهن منفوش لا وزن له!!

وقد جنت هذه الأتربة الكثيفة على (العقل المسلم) بحيث أصبح هذا العقل المكافح في حاجة إلى قوة هائلة كي يتمكن من زحزحتها.. وإعادتها إلى أمشاج متناثرة.. تتجه إلى صوب آخر.

٢٧

ولنبدأ (بعقيدة المسلم)..

فأين هي عقيدته التي نزلت على محمد بن عبد الله ﷺ، وتلقاها جيل الصحابة صافية نقية بينما هي تهبط من فوق إلى تحت، ثم تظهر آثارها الصافية النقية بينما هي صاعدة من تحت إلى فوق؟!.

إنها ـ كما هبطت صافية نقية ـ تتلخص في آيات محدودات بريئة من شوائب الجدل المنطقي أو (الديالكتيكي):

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ﴾[1]، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[2].

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾[3].

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[4].

أين هذه (العقيدة) (البسيطة) التي تلقتها (الفطرة) السليمة، فوجدت فيها حقيقتها الكاملة، وجوهرها النقي، فتفاعلت معها تفاعل الدم مع القلب.. وانطلقت بها فطرة الرعيل الأول تنفض عن البشرية غبارها المتراكم عبر القرون.. وترفع لواء (لا إلـٰه إلا الله محمد رسول الله) من طنجة إلى جاكرتا.. بل في قلب أوروبة فيما قبل جبال البرانس وفيما وراء البرانس حتى (بواتييه) على أبواب باريس.

وفي كل ذلك مروراً بميراث أكبر إمبراطوريتين في عالم القرن السابع الميلادي دوّت صيحة (الله أكبر) حتى وصلت إلى عنان السماء.. فعاد الهتاف العلوي الهابط من السماء إلى الأرض.. يصعد مرة أخرى من

(١) البقرة: ٢٥٥.
(٢) سورة الإخلاص.
(٣) الشورى: ١١.
(٤) البقرة: ٢٨٥.

الأرض إلى السماء في أكبر عملية التحام بين الإرادة الإلٰهية والإبداع البشري في تاريخ هذا الإنسان على هذا الكوكب الصغير!! أين هي هذه العقيدة الصافية النقية، وأين هو إنسانها ذو الفطرة السليمة..؟ وأين هما من هذا الركام من التصورات والأباطيل التي نمت في عقل المسلم، وجعلته كينونة غريبة بين الإيمان والشرك في سياق واحد:

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1].

أجل: أين فقه العقيدة لا (علم الكلام)؟!

(١) يوسف: ١٠٦.

عقيدة ودعوة

٢٨

إن عقيدة المسلمين التي فتحوا بها العقول والقلوب والأرض هي تلك العقيدة الإسلامية البسيطة الحية الإيجابية الفاعلة التي خرج بها المسلمون في العهد النبوي، في غزوات وسرايا وبعوث بلغت خلال عشرة أعوام أكثر من ثمانٍ وستين غزوة وسرية وبعث..

وهي ـ كذلك ـ هذه العقيدة التي واجه بها المسلمون أباطرة الأرض وقياصرتها في العهد الراشدي وكأنهم يواجهون بقوة السماء ضعف الأرض، وبشموخ الحق انحدار الباطل.. لقد واجه بها خالد وأبو عبيدة وسعد بن أبي وقاص أعنف معارك التاريخ حتى عصرهم..

ووقف ـ بهذه العقيدة ـ ضابط صغير من ضباط المسلمين يدعى ربعي ابن عامر، يقول لرستم قائد الفرس:

«لقد بعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا منه، ورجعنا عنه وتركناه وأرضه».

لم تكن العقيدة ـ في فقههم ـ إلا الحياة.. فلا حياة بلا عقيدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1].

(١) الأنفال: ٣٤.

ولم تكن الحروب في منهجهم إلا حروب عقيدة ودعوة لا معارك سياسة ودولة.. إن كل جندي مسلم كان يحس بأنه (عمر بن الخطاب) و(خالد بن الوليد)، وأن النصر إنما هو انتصار لقضيته هو في الأرض.. كان كل منهم جيشاً عقدياً يسعى لتحرير البشرية من عبودية العباد إلى عبودية الله.. وكان آخر ما يفكرون فيه المغنم والمتاع.

انظر إلى فتوحاتهم على قلة ما ملكوا فيها من عدد وعدة، كيف قهرت جيوشاً كثيفة العدد قوية العدة، ففي فتح الأندلس التقى طارق بن زياد ومعه اثنا عشر ألف جندي ومعظمهم حديثو العهد بالإسلام من البربر.. التقى بجيش إمبراطورية (القوط العصري) المنظم الذي يزيد على مئة ألف جندي.. فكان النصر للعرب والبربر الحديثي العهد بالإسلام والقليلي العدد والعدة، وفتحت على أيديهم إسبانية، وانتشر فيها الإسلام حتى أصبح يهدد ـ من خلالها ـ كل أوروبة..

إنها جيوش (عقيدة) و(دعوة).. لا جيوش (سياسة) و(دولة)!! فلما جاء عبد الرحمن الثالث الشهير بعبد الرحمن الناصر، حكم أوروبة ـ كما يقول التاريخ ـ من خلال عاصمته قرطبة، وكانت له علاقات طيبة بإمبراطور الدولة البيزنطية (قسطنطين السابع) (٩٠٥ ـ ٩٥٩م).

وبإمبراطور الدولة الرومانية (أوتو الأكبر) (٩٣٦ ـ ٩٧٣م).

وبملك إيطالية (هوج دي بروفانس)..

كما أن عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ) كانت له حروب ظافرة ضد ملك نابرة (سانشو الأول)، وملك ليون (أوردو الثاني)..

ومن الغريب أن (الناصر) كان يلعب ببعض حكام أوروبة، على النحو، الذي يمارسه الغرب والشرق ـ الآن ـ بالمسلمين!!

فلما مات (راميرو الثاني) ملك ليون، ودب النزاع على السلطة بين ولديه (أوردو، وسانشو).. كان الناصر هو الحكم بينهما، وقد وقف إلى جانب (سانشو) عندما وافق الأخير على أن يعطيه عشرة حصون هامة على حدود مملكته!!

- لكن ماذا أفاد الإسلام من كل هذا المجد؟

- إنه مجد محدود.. كالبريق الزائف.. لأنه لم تصحبه (دعوة)، وما أن مات الناصر، وخلفه ابنه (الحكم الثاني) (٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ) الذي عاش ـ أكثر ما عاش ـ على مجد أبيه المؤقت، حتى استطاع مغامر غريب الأطوار، أن يصل إلى الحكم، مستخدماً في ذلك كل الوسائل (الميكيافيلية) الحديثة.

أجل: لقد كان المنصور بن أبي عامر سياسياً وداهية من طراز نادر.. وقد نجح في أن يجعل دولة بني أمية في الأندلس مجرد ظل باهت.. ولم تقم لها بعد ذلك قائمة!!

فأين هو مجد عبد الرحمن الناصر.. في داخل الأندلس أو خارجها؟ وعلى خطا (الناصر) سار المغامر (المنصور العامري) فغزا النصارى سبعاً وخمسين غزوة لم يهزم في واحدة منها قط، حتى سُمِّي (الجلاب) لكثرة ما جلب لشعبه من الغنائم والسبايا.. ومع ذلك كله.. فإن هذه الغزوات لم ترجع على الإسلام ـ كدعوة ـ بشيء.. فلم يزد الأمر عن سبع سنوات فقط ـ بعد وفاة المنصور العامري ـ حتى سقطت الأندلس في حضيض مروع من الفتن، انتهى بسقوط الدولة الأموية، وبداية سقوط راية الإسلام في الأندلس كلها.

فما قيمة هذه المعارك الظافرة التي بلغت سبعاً وخمسين غزوة إذاً؟

- لقد كانت معارك (سياسة ودولة)، لا معارك عقيدة ودعوة!!

- لقد كانت معارك وراءها (قواد عظماء)، وليس وراءها شعوب عظيمة.. فلما انتهى القواد العظماء انتهى مجدهم معهم!!

لقد كانوا عظماء حقاً.. لكنهم احتكروا العظمة، وكانت طبيعتهم الطاغية حائلاً دون أن تنبت حولهم زهور عظيمة.

على أنهم ـ وقد احتكروا العظمة وأهملوا تربية شعوبهم على العقيدة والدعوة ـ قد استثمروا مجدهم في مظاهر زائفة، ظنوها طريقهم إلى الخلود..

فعبد الرحمن الناصر.. بنى مدينة الزهراء، وأنهك في بنائها جيشاً من العمال، واستنفد في بنائها ثلث إيراد الدولة لمدة سبع عشرة سنة، بل إن بناءها قد استمر بعد ذلك في عهد ابنه الحكم مدة طويلة!!

وأما (المنصور العامري) فقد بنى مدينة الزاهرة، لكي تنافس مدينة الزهراء!! إنه منهج الفراعنة القديم.. المنهج القائم على بناء الآثار، على حساب بناء الإنسان.. إنه عَكْسٌ لترتيب المعادلة الحضارية، فالإنسان هو المبدع الأول للحضارة.. وفكر الإنسان وعقيدته قادران على إنجاز التطور الحقيقي.. أما هذه الماديات الاستهلاكية، فهي وسيلة تدمير للإنسان ـ إذا أصبحت هي الغاية في حد ذاتها ـ وهي ـ من زاوية أخرى ـ وسيلة إذلاله، ووسيلة استنزافه.. واسترخائه!!

إنها (عبودية) تتناقض مع عقيدة (التوحيد).. عقيدة (لا إلٰه إلا الله).

٢٩

ومن المؤسف أن قرننا المنصرم لم يقدِّم لنا إلا بعض المحاولات التي سعت إلى صياغة (فقه العقيدة).. صياغة علمية عصرية، وهي تعبير عن جهود فردية مخلصة، لا عن عمل جماعي ينضج بروح العصر الموسوعية..

وما يقال في العقيدة يقال ـ كذلك ـ في فكرنا التشريعي والفقهي، ويقال كذلك في تاريخنا الذي يحتاج إلى إعادة كتابة، كما يحتاج إلى نظرية إسلامية لتفسيره، وتفسير وقائع التاريخ البشري العام..

إن (فن الصياغة) العامة يجب أن يتبوأ مركزاً أساسياً في المرحلة المقبلة التي سيواجهها العقل المسلم، كما أن هذا العقل يجب أن يؤمن ـ إيماناً كبيراً ـ بجدوى تقديم الأطر العامة والنظريات المتكاملة والمناهج الشاملة!!

يتحدث الأستاذ محمد المبارك في مجلة المسلم المعاصر عن النظام الإسلامي العقائدي الذي يجب أن يطرحه (العقل الإسلامي الحديث).. فيتساءل:

كيف نواجه ـ نحن المسلمين ـ النظم العقائدية الوافدة المتداعية إلى غزونا، بنظام عقائدي إسلامي؟

كيف نصوغ مبادئ الإسلام الأساسية بحيث تنظم جماعة المسلمين وتكون منهم أمة، وتقيم منهم على أساس هذا النظام دولة، لتجتمع لهم بذلك عقيدة وأمة ودولة على نسق واحد، ينتظم عقدها نظام واحد؟

على أن تكون هذه الصياغة مناسبة لأساليب التفكير المعاصرة، وتتمتع بقدرة على الحوار والمواجهة للنظم الأخرى، وعلى مخاطبة الناس جميعاً في عصرنا هذا، والانفتاح على الإنسانية بأفقها الواسع!!

ولكي نبلغ هذه الغاية لابد لنا من العودة إلى الوراء لرسم الخط البياني الذي أوصلنا إلى موقفنا الحالي..

لقد مر الإسلام منذ بدايته وقبل مرحلة الغزو الأخيرة بمرحلتين:

أولاهما: مرحلة الازدهار والقوة، التي استمرت أربعة قرون، ثم بقيت بحكم الاستمرار، وبقوة الإشعاع فاعلة عدة قرون أخرى.

وثانيتهما: مرحلة الضعف والجمود التي بدأت بالقرن العاشر الهجري، وهي مرحلة تتّسم بالركود العلمي وغلبة النقل والتقليد، وفقدان الإبداع، ووقوف العلوم الرياضية والطبيعية، وركود الحركة الاقتصادية، والاهتمام بالجزئيات تفكيراً وعملاً، بدلاً من الاهتمام بأهداف الإسلام ومقاصده وكلياته..

وكل ذلك وقع ـ كما يقول الأستاذ المبارك ـ بسبب ما طرأ من تغيير على المفاهيم الأساسية الإسلامية، وانحراف عن الاتجاه الإسلامي الأصيل، وتغيير في سلم الأولويات كما رتبها الإسلام في كتابه وسننه، بحيث أصبح الاهتمام الكبير بالأمور الثانوية، والإغفال الشديد للأمور التي اعتبرها الإسلام في الدرجة الأولى من الأهمية!!

يضاف إلى هذا ما أدخل في المحيط الإسلامي من أفكار خارجية أقحمت على الإسلام مباشرة أو بطريق التأويل، وما ابتدع في مجال العقيدة والعبادات، مما أدخل بعقيدة التوحيد التي هي محور الإسلام وجوهره وسبب قوته(١).

والطريق ـ بعد ذلك ـ إلى إقامة بناء عقدي فكري متكامل، نستطيع على أساسه تصحيح ما حدث في العصور السابقة من انحراف وتشويه وتبديل، ونستطيع ـ أيضاً ـ دحض التيارات الفكرية والوافدة، يقتضي منا أن نصوغ ما يتضمنه القرآن من حقائق عن الوجود، يعرضها علينا ويدعونا إلى الإيمان بها صياغة جامعة شاملة.. على أساس:

- معرفة الله من خلال الكون.
- معرفة الله من خلال الإنسان وتركيبه وعقله.

---

(١) العدد الرابع عشر من المجلة المذكورة.

- معرفة الله من خلال حركة التاريخ البشري.

- وأخيراً.. معنى عبودية الله وحده، ورفض عبادة ما سواه من أصنام وأوثان ونظم وأوطان وأفكار وشعارات فارغة المحتوى كالشعب والدولة.. فضلاً عن تقديس بعضهم للعقل والتقدم والحتمية.. وما إليها من مقولات رائجة في سوق الشعارات!!

أزمة العقل المسلم

٣٠

- أجل أين علم المسلم وعقله في عالم مقاتل بالعلم والعقل؟

- إن (رماح) عصرنا أصبحت صواريخ تحمل رؤوساً نووية.

وإن (خيول) عصرنا أصبحت طائرات تسبق الصوت، وتحمل الواحدة منها ثمانية عشر رأساً نووياً تكفي لتدمير دولة يزيد عددها عن مليون من البشر!!

وإن (فارس) عصرنا الذي يستحق في الغنيمة ضعف أخيه الماشي على قدميه..

هذا الفارس المغوار هو من يستطيع تطوير أي سلاح ذري أو نووي.. وتقديم نظرية اقتصادية متكاملة تقوم على ركائز عقيدته وقيمه، وتقلب موازين العالم المادي.. عالم البنوك الربوية والبورصات!!

ـ أين علم المسلم وعقله، وهو الإنسان الوحيد في الأرض الذي تلقى وحياً من السماء يأمره في أول كلمة يلقيها على مسامعه: (اقرأ)؟! عجباً.. كأنه يفتح بهذه الكلمة عصر العلم والعقل..

وكأنه ـ وهو يدق باب القرن الأول الهجري ـ يدق ـ أيضاً ـ بوابة القرن الخامس عشر للهجرة..

ولا زال المسلمون يحتاجون إلى الدقة نفسها.. إلى الارتفاع نفسه.. فقد استدارت جاهليتهم كهيئتها الأولى، وارتدوا على أدبارهم تخلفاً وأمية كيوم هبط جبريل بأول (توجيهات) الإسلام الكبرى:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

إنها (توجيهات) لا تقف عند علم معين، ولا تربط العلم ببيئة معينة، ولا زمان معين.. بل شرطها الوحيد.. أن تكون (باسم الله)!!

ومع ذلك شاء المسلمون في مراحل تخلفهم أن يقسموا (العلم) قسمين:

علم دين وعلم دنيا.. وجعلوا ثواب (العلم الأول) أكثر من ثواب (العلم الثاني). وكأن علوم الدنيا من طب وفلك وفيزياء ونبات ليست علوماً دالة على إبداع الخالق في الآفاق وفي الأنفس.. ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[2]!!. وبالتالي فهي ـ كما تدل الآية ـ علوم دين!! وأما ما أسموه (بعلوم الدين) فهي علوم إن لم تؤثر في الدنيا، فإنها تفقد دورها.. إن (الدنيا) هي بعض وظيفتها وجزء أساسي في مجال عملها، وهي قنطرتها إلى الآخرة.

فمن أين للمسلم هذا التقسيم؟ وهل يمكن أن تصنع هذه النظرة القاصرة حضارة تليق بدين لا فصل فيه بين الدين والدنيا، والعقيدة والعبادة!!

وهل يمكن أن تكون «جدليات» علم الكلام العقيمة، وتكلفات الفرق المختلفة ـ من أشاعرة إلى معتزلة إلى مرجئة إلى خوارج ـ أفضل ـ للمسلم في دنياه وأخراه ـ من النظر الثاقب الفاحص الرشيد في عالمي النفس والكون؟!.

---

(١) العلق: ١ ـ ٥.
(٢) فصلت: ٥٣.

وهل يمكن أن يكون ذلك (الفقه الافتراضي) الذي يخترع أقضية ويمرِّن عقله على الفتوى فيها.. وهي أقضية أكثرها مستحيل عقلاً؟!.

هل يمكن أن يكون ذلك (الفقه التقديري) ـ كما أسموه ـ أفضل من دراسة المجتمع واستخلاص قوانين الاجتماع على أسس علمية ورياضية، وبالتالي البحث الدائم لأمراض المسلمين الاجتماعية والاقتصادية عن حلول حقيقية نابعة من أصول دينهم وقواعده الكلية؟!.

وهذا (النحو التقديري).. (نحو) الحذف والعامل والمستتر وجوباً وجوازاً، والتنازع والاشتغال.. وغيرها من التقديرات العقلية الضائعة.. هذا النحو الذي (عقَّد) لغتنا العربية الجميلة، وجعلها من (اللغات الصعبة) حتى على أبنائها، وجعل أحدهم وهو الفراء يموت وفي نفسه شيء من (حتى) (!!).

هل يصلح هذا (النحو) أداة مناسبة في عصر يبلغ فيه (الصراع اللغوي) أشده، وتعمد فيه كل دولة إلى نشر لغتها بأحدث الطرق الممكنة وأبسطها؟

وبسبب من هذا (النحو التقديري) ضاع أَلَقُ تفسير القرآن وشرح الحديث، على يد كثير من المفسرين والمحدثين الذي انشغلوا بالأداة أكثر من انشغالهم بالمضمون، والذين قتلهم (الجزيء اللغوي)، فلم يصلوا إلى حقيقة (البناء) الكلي للإسلام.

٣١

وإذا ذهبنا نستعرض جميع حضارات الأرض.. الفراعنة.. الإغريق.. الرومان.. الإسلامية.. الأوروبية.. بل إذا استعرضنا الحضارات المندثرة التي حصرها (أرنولد توينبي) في إحدى وعشرين حضارة.. فإننا سنجد أن (العقل) أو (العلم) هو القاسم المشترك بين كل هذه الحضارات!!

وبمقدار ما يكون استعمال العقل غالباً والشغف بالعلم وتيسير ظروفه متحققاً. . بمقدار ما ترتفع الحضارة على غيرها من الحضارات!

وهذا (العلم) ذاته، يحتاج إلى (علم) يحميه، فلا علاج للعلم الجزئي المنحرف، إلا بعلم كلي صحيح. كما لا علاج للعقيدة المنحرفة إلا بعقيدة صحيحة. . فعندما انحرف (علم الفراعنة) وتحول إلى عبادة الطاغوت، وإلى سحر يخدع العقل، جاء العلم الصحيح يلقف ما صنعوا، وعندما انحرف الأثينيون في عهد السوفسطائيين. . (أثينا بركليز وأرسطو)؛ جاء (المنطق) يضع للعقل القواعد التي يتحرك فوق قضائها، و(الترمومتر) الذي يميز به الفكر الصحيح من السقيم!! ولما بدأ (العقل المسلم) يدخل مرحلة الترف الفكري منذ عهد المأمون، وأخذ بقيادة المعتزلة يلعب بالجزئيات، ويعمد إلى تفريغ الكلمة من جانبها الفاعل الحركي إلى مجرد كلام يغلب فيه الخصم الخصم. . ظهر أبو محمد علي بن حزم (ت ٤٥٦هـ) يكتب (الفصل في الملل والأهواء والنحل)، وظهر أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) يعيد صياغة علوم الدين، فيما عرف باسم (إحياء علوم الدين)، ويكتب (فضائح الباطنية)، ثم ظهر أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٧٢٨هـ) يكتب (الرد على المنطقيين) و(السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية).

وظهرت على امتداد حضارتنا كتابات كثيرة تحمل الطابع التنظيري الشمولي، وتنكر ـ ضمناً ـ هذه الجزئية المدمرة. . وكمثال، ظهرت في الفكر الاقتصادي كتابات محمد بن الحسن الشيباني (ت ١٨٩هـ) صاحب كتاب (الاكتساب في الرزق المستطاب)، وأبي يوسف صاحب أبي حنيفة (ت ١٩٢هـ) مؤلف كتاب (الخراج)، وأبي عبيدة القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) صاحب (الأموال)، والمقريزي (ت ٨٤٥هـ) صاحب (إغاثة الأمة في كشف الغمة). .

وفي الفكر الاجتماعي ـ كمثال ـ ظهرت مقدمة عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ)، فكانت منعطفاً جديداً كان حريّاً أن يحدث ثورة في الفكر التاريخي والاجتماعي، لو وجدت استجابة ملائمة.. وفي الفكر السياسي ظهرت كتابات الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) صاحب (الأحكام السلطانية)، وابن القيم ـ تلميذ ابن تيمية ـ صاحب كتاب (الطرق الحكمية في السياسة الشرعية).. والطرطوشي صاحب (سراج الملوك).. وغيرهم.

والفرق بين حضارة وحضارة ليس في أن هذه لديها علم، وهذه لا تملك علماً، فقد ذكرنا أن العلم قاسم مشترك، وإنما تتفاوت الحضارات في أن هذه ذات علم وصل إلى مرحلة (التركيب) وإلى استخلاص (القوانين العامة) والمبادئ الأساسية، والمناهج الموضوعية.. وأن تلك تستنزف علمها في قضايا فرعية وخيالية، أو في قضايا من الدرجة العاشرة أو العشرين، بينما تغفل الوقوف عند القضايا ذات الأهمية المصيرية، وإذا وقفت عندها فإنها تقف وقفة متحمسة انفعالية، وتتناولها بالطريقة نفسها التي تتناول بها القضايا الفرعية..

ومن هنا يبدو التقارب في منهج التناول الذي خضعت له كل العلوم الإسلامية والعربية.. فمنهج علم الكلام قريب من منهج الفقه، والأخير قريب في منهجه من منهج التفسير والنحو والصرف والبلاغة..

لكن أين البناء الكلي للعقيدة على أساس من كتاب الله؟! وأين الإطار الشامل للفقه، بحيث يصبح (فقهنا) نظرية اقتصادية، واجتماعية، تغنينا عن استيراد النظريات الاقتصادية والاجتماعية من شرق أو غرب، وتعبر عن هويتها العقدية، وتقف كتركيب يزاحم، بل ويهزم، ما يعرض الآخرون في سوق النظريات.

إن بناءنا الفكري لنظرية في الاجتماع والاقتصاد، يحمل في أركانه وبين

ثناياه خصائص عقيدتنا، وأخلاقيات حضارتنا، هو خير أسلوب في الدعوة إلى الإسلام، . . إذا كنا حقاً مسلمين، نسعى لخدمة هذا الدين!

٣٢

إن جوليان هكسلي ـ في كتابه «الإنسان في العالم الحديث» ـ يحدثنا عن أبرز الخواص التي امتاز بها الإنسان. . فيرى أنها ثلاث خواص:

١. قدرة الإنسان على التفكير الخاص والعام.

٢. التوحيد النسبي لعملياته العقلية، بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان.

٣. وجود الوحدات الاجتماعية[١].

والحقيقة أننا ـ نحن المسلمين ـ لا نجد جديداً في كلام هذا الملحد هكسلي. . لكننا ـ مع ذلك وللأسف الشديد ـ نجد أنفسنا في حاجة ماسة إلى تطبيق هذه الخصائص الإنسانية الثلاث على واقعنا. . فقدرتنا على التفكير العام، وقدرتنا العقلية على التوحيد النسبي، واستخلاص القواعد الكلية والرؤية الشاملة، وتخطي الجزئيات. . هذه القدرات تحتاج إلى علاج حاسم. . يأتي عن طريق تكوين (العقل الجماعي) في سائر أمورنا.

إننا لم ندخل عصر المؤسسات بعد!!

أليس من الغريب أن الأمة الإسلامية تفشل في ترجمة ـ مجرد ترجمة ـ لدائرة المعارف الإسلامية؟

وأليس من المحزن أن لا توجد دائرة معارف إسلامية أو عربية أو تركية

---

(١) الإنسان في العالم الحديث، ص ٣٢، ترجمة حسن خطاب، طبع القاهرة.

أو فارسية على غرار الدوائر العلمية التي أنشأها الغرب، وكوَّن من أجلها مراكز أبحاث متخصصة.

وأليس من المحزن أن نتطفَّل جميعاً على كتاب (المعجم لألفاظ الحديث النبوي) الذي صدر بإشراف (أ. ي. ونسنك و ي. ب. منسنج).

وإنك لتستطيع أن تنظر في غلاف أي جزء من أجزاء المعجم المذكور لتعرف الفرق بين (العقل الجماعي) وبين الجهود الفردية المحدودة.. إن صفحة الغلاف تقول ذلك:

إن هذا العلم الذي بين يديك تضافر على إعداده ـ باستثناء الباحثين المذكورين آنفاً ـ:

١. ي. بردجمان.. الذي تابع النشر بعد (ونسنك) و(منسنج).

٢. الاتحاد الأممي للمجامع العلمية.

٣. والمجامع العلمية البريطانية، والدانيمركية، والسويدية، والهولندية، واليونسكو، وإلك ف. س، والهيئة الهولندية للبحث العلمي البحت.

إن هذا هو ما نسمِّيه بالعقل العلمي الجماعي، أو المؤسسات العلمية المستوحاة من تراثنا ـ كذلك ـ، وليس لمجرد التقليد، فكلنا يذكر بيت الحكمة، وكلنا نذكر المكتبات العامة التي أنشأها (الحكم بن عبد الرحمن الناصر) في الأندلس، وكلنا يذكر المؤسسات التي أنشأها (المأمون العباسي) للترجمة، ونذكر ـ كذلك ـ بالفخر ـ دون أن نحاول المحاكاة ـ مدرسة الحديث، ومدرسة الرأي.. ومدرسة البصرة والكوفة.. والفقه المصري.. والفقه العراقي، والاتجاه المغربي المالكي.. وغيرها من المدارس والتيارات المتعاونة والمتداخلة أحياناً، والتي يخضع كل منها لمنهج ورؤية و(أصول) تميزه!!

بل إن بعض هذه المدارس كان يسير وفق منهج يلتزم به في العقيدة والفقه والنحو. . وأسلوب الحياة. وابن حزم الظاهري من هذه الأدلة القوية الشامخة على هذا الاتجاه المنهجي الواحدي!!

إنه طبق المنهج الظاهري على دراسته للعقائد والفقه والنحو. . بل والعواطف الشخصية!!

ونحن لا نتبنّى آراء ابن حزم في كل ما رأى، كما لا نرى أن يكون هناك التزام مذهبي صارم. . فهذا الالتزام المذهبي حائل دون الاجتهاد والعقلانية التي ندعو إليها. . وإنما نرى أن يكون هناك منهج علمي واضح، ومدارس للاجتهاد تمثل العقل الجماعي، وترعاها مؤسسات تنشأ باسمها. . مؤسسات للفقه، وللغة العربية، وللأدب العربي، ولفقه العقيدة، وللعلوم الطبيعية والاجتماعية والتربوية والاقتصادية. . وغيرها.

أما الإصرار على الجزئية في التفكير وفي الاهتمام، والفردية في التطبيق والاجتهاد. . فلن يصلا بنا إلى القدرة على المنافسة الحضارية في عالم القرن الخامس عشر!!

٣٣

وليس يعنينا كثيراً أن تعود هذه المدارس على النحو الذي كانت عليه، فلاشك أن ثمة متغيرات وتحديات جديدة يطرحها العصر الحديث. . لكن الذي يعنينا أن تكون هناك «مؤسسات» فكرية تملك القدرة على البحث في المنهج، وعلى إخضاع الجزئيات لهذا المنهج، ويكون من حقها ـ أكثر من غيرها ـ استخلاص الأحكام العامة. . وتطوير مناهج البحث في تخصصها. . وإنجاز المشروعات الكبرى. . إن الموضوع العلمي ليس هو القضية. . بل المنهج العلمي هو عمود التطور الفقري. وإن العلم. . لا يرتبط

بموضوع معين، لأن موضوعات البحث العلمي تتعدد، وكما يذكر الدكتور زكي نجيب محمود، في كتابه حول «المعقول واللا معقول في تراثنا الفكري» فقد يكون موضوع البحث العلمي هو تركيب المادة، أو هو التفاعل بين عنصرين أو أكثر من عناصر المادة، أو قد يكون موضوعه هو حركة الأفلاك، أو مسار الضوء، أو سرعة الصوت، أو فاعلية الكهرباء، أو سقوط المطر، أو هبوب الريح، أو قد يكون موضوعه أوزان الشعر العربي، أو خصائص فن العمارة في عصر من العصور..

ومن جانبنا نقول:.. إنه قد يكون موضوعه قضايا العصر الفقهية الملحة، أو تطوير تعليم اللغة العربية للأجانب والعرب، أو بناء نظرية اجتماعية إسلامية، أو نظرية تربوية.. أو نفسية، أو اقتصادية إسلامية.. كل ذلك.. يخضع للمنهج العلمي الجماعي الرصين.. الذي يتميز بوضع الجزئيات في نسيجها المتشابه والمتشاكل.. وفي إخضاعها لقانونها، وفي استنباط القوانين والقواعد منها.. شريطة أن نلتزم الحذر والدقة والاستقصاء النسبي في خطوات بحثنا.

إن الدكتور زكي نجيب محمود (وهو كاتب غير منحاز لتراثنا) لم يملك نفسه من الإعجاب بالدور المنهجي الممتاز الذي لعبته حركة دراسة اللغة العربية في عصور الازدهار.. إنه يقول:

«ولست أنا الكاتب الذي يستطيع أن يحدث القراء بشيء من التفصيل المفيد عن هذه الحركة في دراسة اللغة ونحوها وصرفها، لكنني أترك حقلاً عجيباً في دقته العقلية، غزيراً في خصوبته وثماره، إذا أنا تركت حقل الدراسات اللغوية وما يدور حوله من أبحاث كادت تبلغ مبلغ الدقة الرياضية في دقة التحليل وفي سلامة الاستدلال.

وأول ما نلحظه في هذا الصدد هو الصلة الحميمة الوثيقة بين بحوث الباحثين وبين حياة الناس العملية، حتى في مثل هذا المجال اللغوي، الذي

قد يبدو لعين القارئ العربي اليوم وكأنه مبتور الصلة عن تلك الحياة، جرياً منه على ما قد ألفه في عصره هذا من بعد الشقة في كثير جداً من الحالات بين رجال اللغة من جهة، وضروب النشاط العملي من ناحية أخرى، حتى لقد سار فينا سريان الأمثال أن يكون رجل اللغة العربية ونحوها ومعاجمها ومصادرها وتصاريفها رجلاً غريباً على مسرح الحياة اليومية، لا تسيغ سمعه الآذان، إذا حرص على ضبط اللغة مقروءة أو مكتوبة.. لا.. لم يكن رجال البحث اللغوي إبان الفترة التي نتحدث عنها مبتوري الصلات عن مجرى الحياة العملية ومشكلاتها، ومن ثم كانت منزلتهم العليا عند الناس!!»[١].

٣٤

إن ما نريد أن نصل إليه، وأن يستقر في الأذهان هو ضرورة أن ندخل عصر العلم، كما دخل أسلافنا عصر العلم، كي ينجحوا في إبداع حضارة ترتفع إلى مرتبة قيادة عصرهم.. ونجحوا.

ويظن بعض الناس أننا عندما تفوقنا ونشرنا ديننا إنما تفوقنا بدفعة الروح وحدها، متجاهلين دفعة العقل كذلك.

إننا لو نظرنا إلى العواصم الإسلامية.. دمشق.. بغداد.. القاهرة.. المدينة.. قرطبة.. مكة.. القيروان.. فاس..، وقارناها بعواصم أوروبة وإفريقية وآسية ـ غير الإسلامية ـ لعرفنا أننا كنا نحكم العالم.. بالعلم والدين معاً.. وكانت لغتنا ـ كالإنكليزية الآن ـ هي لغة الحضارة، وهي لغة الثقافة العالمية.. ولا يصلح طبيباً ولا فلكياً ولا رياضياً ولا فيلسوفاً.. إلا من يتعلمها.

(١) المعقول واللا معقول في تراثنا الفكري، ص ٨٤.

وحتى ـ بعد هذه الدفعة الأولى ـ عندما التقينا بالصليبيين اللقاء العالمي الذي استمر قرنين.. والذي هزمناهم فيه.. حتى في هذا اللقاء كنا العلماء، وكانوا الجهلاء.. وبهذا ـ بعد الدين ـ انتصرنا.. كان صلاح الدين الأيوبي في عقله ورفيع خلقه ودينه أفضل من كل ملوك أوروبة.. وكان طبيب صلاح الدين أعلم ـ بخمسة قرون على الأقل ـ من طبيب ريتشارد قلب الأسد، وكان (سكرتير) صلاح الدين.. العالم الكبير القاضي الفاضل أعلم من أي مساعد أو كاتب ـ إذا كان هناك كاتب ـ لدى ملوك أوروبة النصرانية، وخيول صلاح الدين كانت أسرع وأقوى من خيول النصارى البطيئة!!

فبالعلم ـ بعد العقيدة ـ انتصرنا..

ولنسأل كل حروبنا.. فسنجد لمسة العلم.. بعد دفعة العقيدة.. ولم ننتصر أبداً بجهلنا وتخلفنا واستيرادنا.. كلا فما تقوم حضارة أبداً ولا تنتشر عقيدة أبداً تحملها عقول محاصرة بالجزئيات، مدمرة بالشكليات، مليئة بالترهات، لا تتفوق على عصرها (في أسلوب التفكير العلمي، ولا في طرق البحث العلمي، ولا في التطبيق العلمي للمعارف التي تصل إليها).. وهذه الثلاثة هي الأركان الأساسية التي يقوم عليها العلم، أي علم!!

ونحن نعلم أن هناك بعضاً من المتحمسين يربطون بين (العلم) وبين (أوروبة) ولأنهم يرفضون أوروبة ـ وهم مُحِقُّون ـ فهم يرفضون ـ بالتالي ـ العلم!! كلا.. فإن هذا الخلط واحد من الأخطاء الكبيرة التي سيطرت على عقول المسلمين.. ولنبدأ في تحليل هذه القضية ـ من تراثنا نفسه قبل أن نصل إلى العصر الحديث. فإن أوروبة ـ كما هو معروف ـ قد جلست من أساتذة الحضارة الإسلامية مجلس التلميذ، وتلقَّتْ ـ حتى رهبانها ـ العلم على يد علماء، بل وفقهاء قرطبة، وإشبيلية، وبجاية، وفاس، والقيروان.. وقد سرقت من مخطوطاتنا ما لا يعلمه إلا الله، واحتفلت بعلمائنا أكثر منا، وقررت كتبهم في جامعاتها..

أجل.. لقد اعتصرت أوروبة كل علمنا، ووضعته على مشرحة البحث والتحليل، لكنها مع ذلك رفضتنا.. إنها لم ترفض عقيدتنا فحسب، بل إنها رفضت حتى صياغتنا للحياة، بل إنها ـ لم تكتف بهذا ـ فعمدت إلى تشويه حقائق الإسلام، وجنّدت لذلك جيوشاً من المبشرين والمستشرقين، حتى تحول دون وصول الإسلام إلى أوروبة..

لقد اتخذت أوروبة ضدنا كل وسائل الوقاية.. ومع ذلك فقد أخذت كل ما في أيدينا تقريباً من علوم ومعارف!!

وبعد ذلك، وبعد انتصارنا عليها في الحروب الصليبية بالعقيدة وبالخيول السريعة، وبالعلم الذكي، وبالقيادة الواحدة الرشيدة، بعد ذلك ـ وفي غفلة وجهالة منا استمرت عدة قرون ـ فاجأنا نابليون بونابرت في سنة ١٧٩٨ م بالمدفع المحمول على عجلتين..

فانهارت أمامه خيول المماليك ـ الذين لم يتعلموا علم عصرهم ـ وأصروا على القتال بخيول سريعة.. في عصر انتهت فيه حروب الخيل.. واشتعلت حروب العقول!!

وفي عصرنا الحديث عرفت اليابان هذا السر، ولم تكابر، ولم تذهب لشراء الحضارة أو منتوجاتها، أو للحصول على شهادات أوروبة في العلوم الإنسانية أو في الديانة البوذية أو في اللغة اليابانية.. أو في علوم الاجتماع والاقتصاد والسياسة والآداب والفنون.. كلا.. فهذه علوم خاصة تتصل بشخصية الأمة، وتعلمها خارج نطاق الأمة نفسها عبث وتبعية فكرية.. وانتحار!!

وإنما ذهبت اليابان لشيء واحد.. للعلم والتكنولوجيا.. اللذين هما سر تفوق أوروبة، ولا تفوق لها في غيرهما.. بل إنهما ليستران عوراتها الكثيرة.. وبإيجاز.. إن الحضارة الأوروبية الحديثة لها جانبان:

١. جانب شخصيتها والعلوم المتصلة بها.. بدينها المسيحي وبنظمها الليبرالية ولغاتها وعاداتها وتقاليدها وموروثاتها الثقافية والاجتماعية.. وألعابها الرياضية..

٢. جانب عطائها العلمي (أسلوباً، وطرائق، وتطبيقاً) وهذا جانب إنساني وعلمي عام، وكما أن استيراد الجانب الأول (الجانب الشخصي) تدمير للأمة، كذلك فإن إغفال الجانب الثاني العلمي البحت تدمير للأمة بالمستوى نفسه!! ونحن ـ للأسف الشديد ـ قد ذهبنا إلى أوروبة نأخذ الأول.. وكرد فعل، رفض بعضنا الثاني.. وكلا الأمرين خطأ، والمعادلة الصحيحة أن نتجه لأخذ كل علوم أوروبة التقنية، ولست أعني بالأخذ استيراد منتوجاتها فهذا غاية الدمار، وإنما أعني معاناتها وفهمها وتطويرها وتصنيفها، تماماً كما فعلت اليابان!!

ومن أغرب الغرائب في مواجهتنا للحضارة الأوروبية ـ بعد ظهور مدافع نابليون ـ أننا ذهبنا بقيادة رفاعة الطهطاوي، ومروراً بطه حسين، وسلامة موسى، وكمال أتاتورك، ولطفي السيد، وأمثالهم.. ذهبنا نعبُّ من العلوم الشخصية للغرب، ونترجم الإلياذة والأوديسة وندعو إلى اللاتينية.. بل واليونانية والرومانية وإلى لبس (القبعة).. ونتمنى لو تعلمنا مصارعة الثيران إضافة إلى كرة القدم!!

بينما لم يبذل أي جهد محترم في معرفة (العلوم البحتة) وممارستها وإدخالها إلى حياتنا.. وكان هذا الاتجاه الخاطئ وما زال ـ بتوجيه من الاستعمار نفسه ـ سبباً في ضياع قرنين كاملين منذ ضربتنا مدافع نابليون..

بينما نشاهد أمامنا دولاً دمرت ثم قامت وتفوقت في أقل من ربع قرن.. لماذا؟

لأنها تعرف الطريق!!

الأمة الإسلامية..
والقادة الحضاريون

٣٥

سيطرت على مسيرة تاريخنا ذي الأربعة عشر قرناً، ولاسيما في فترات الانحلال، قاعدة غريبة هي: أن يوسد الأمر إلى غير أهله!!

وقد زاد الطين بلة في العصر الحديث أن تلقفت الشعوب الجاهلة، ومن بينها الشعوب الإسلامية، فكرة ماسونية كان لها تأثيرها المدمر في حاضر المسلمين.. إنها فكرة المساواة المطلقة بين الناس، تقيهم وفاجرهم، عبقريهم وخاملهم، مهذبهم وسافلهم، وحق الجميع ـ وهم على ما هم عليه ـ في أن يصلوا إلى مراكز القيادة الحضارية في كل المجالات.

وبديهي أن الناس ـ في الإسلام ـ متساوون في أصل الفطرة، وفي الحقوق الإنسانية العامة، وفي حق الوصول إلى القيادة الحضارية عندما تتوافر شروطها.. ومتساوون أمام شريعة الله.

أما أن تفلت أمور الأمة بحيث يتأخر علماؤها ومفكروها، ويعتزلون الحياة حرصاً على كرامتهم ومكانتهم الضائعة، وفي المقابل يتصدَّر الجهلة، تحت أية لافتة، فتلك كارثة كبرى توشك أن تصيب حضارتنا بالعقم الشديد.

وفي كثير من أدوار حضارتنا سيطر كثير من الجهلة والمنافقين: «وكانوا في كل ما يأتون ممثلين لأنفسهم فقط، ولا يمثلون الإسلام ولا سياسته

الشرعية ولا قانونه الحربي ولا نظامه المدني، ولا تعاليمه الأخلاقية إلا في النادر.

وكما ذكرنا فقد تقلَّد هؤلاء الأمر وفي معظم دورات تاريخنا، وإليهم تعزى كل مصائبنا ونكباتنا..

وقد حجبوا بسلطتهم وجهلهم كل الكفايات، ومنعوا كل مستشار أمين من أن يكون له نفوذ، ولم تعش معهم إلا طبقات الوصوليين المنافقين حثالة المجتمع!!

وأصبح الأمر كما قال الرسول ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر».. لأن كلمة الحق عند هؤلاء كانت تساوي حياة قائلها. وبالتالي: انكمشت الصفوة وساد الغوغاء، ووضع مصير الأمة في يد اللصوص وأشباه اللصوص.

وكان من جراء هذا الخلل أن زالت رقابة الدين والأخلاق، واختفت الحسبة، وفقدت حركة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سلطانها، وتنفست الجاهلية ورفعت رأسها، وأخلد الناس إلى الترف والنعيم، وإلى الملاهي والملاعب، وانغمسوا في الملذات والشهوات..»[1].

٣٦

إن رفض مبدأ (المساواة المطلقة) الذي تتستر وراءه المذاهب الفوضوية وأتباعها من الجهلة والغوغاء..وفي الجانب الآخر رفض مبدأ تمتع (أقلية مسيطرة) لا تملك القدرة النفسية ولا الخلقية ولا الفكرية على القيادة.. هذان الرفضان ضروريان للقيام بنهضة إسلامية معاصرة.

---

(١) الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟، ص ١٩١. طبع الاتحاد الإسلامي العالمي.

إن العالم المتحضر يقوده خلاصة صفوته المثقفة، وإن هذه الصفوة لتشكل مؤسسات تستغل كل معطيات العقل الحديث، وتتمتع ـ كقيادة حضارية ـ بكل الإمكانات الاجتماعية التي تمكنها من أداء دورها.

وقد فطنت (اليابان) بعد أن دمّرت في الحرب العالمية الثانية إلى أهمية هذا الأساس في بناء الأمم، فأعطت للمدرسين مرتبات وكلاء الوزارة، وصلاحيات وكلاء النيابة، ووفرت لهم كل إمكانيات البناء، أما طبقة (العلماء) أو (التكنوقراطيين) فهي تتمتع في العالم المتقدم كله بما كانت تتمتع به أي صفوة ممتازة في الحضارات السابقة.

ولذا.. فليس عجباً أن عادت اليابان خلال أقل من ربع قرن لتشارك في قيادة العالم.. بعد أن كانت قد دمرت تدميراً شبه كامل بأسلحة أمريكة الذرية.

إن الطبقات التي تقود الفكر والأخلاق يجب أن (تستشار) على الأقل، بطريقة مدروسة ودائمة وبشكل قانوني ـ في خطوات الطريق الحضاري للأمة المسلمة ـ على أن تكون هذه الطبقات موثوقاً بها في انتمائها لعقيدة الأمة وتراثها، وعلى أن تكون من أهل الكفاية والدين لا من أهل الثقة والدنيا.

وإن أمر الأمة يجب أن يكون شورى بينها، سياسة واجتماعاً واقتصاداً وفكراً.. ومن باب أولى يجب أن يكون شورى بين أهل الحل والعقد فيها، ويجب أن توضع القواعد والنظم لكي لا يصل إلى الإمارة والحكم والقيادة إلا خيار الأمة وصفوتها، لا أن يترك الأمر فوضى دون ضوابط وقواعد.

ومن خلال الخطين المتكاملين ـ لا المتوازيين ـ أي خط القيادة الحضارية المتمثلة في الصفوة المختارة.. وخط الرعية المسؤولة أيضاً قدر

حجمها: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» من خلال هذين الخطين المتكاملين تتحرك الأمة كلها في سلم الحضارة بانسجام وتآزر.

«ولا ريب أن أعباء ومسؤوليات التوجيه والابتكار والنظر إلى المستقبل، والتطلع إلى الأعلى، تلقي بثقلها على كواهل النخبة والصفوة، وبقدر ما يكون شعور الطليعة بضخامة الأعباء مرهقاً، وبقدر ما تواجهه النخبة بتصورات سليمة وبعقليات منفتحة، بقدر ما تتمكن هذه النخبة من تجاوز المشكلات الحضارية، ومن دفع الأمة في مجالات الرقي والتصعيد.

وتظل الأمة والجماعة بخير طالما أن هذه الطليعة منفتحة الأفق، مدركة لحركة التطور، عارفة بطبيعة عصرها، وبأساليب الحياة المستجدة، وعندما تبدأ هذه النخبة بالانغلاق على نفسها، أو عندما تصاب هذه الفئة أو تفسد، أو يقع الشقاق بين أفرادها، فإنها تكون قد استنفدت أغراضها فتعجز عن القيادة الراشدة»[1].

فالنخبة في ظل القاعدة البشرية التي تتجاوب معها، تستطيع أن تترجم تطلعات الأمة إلى واقع ملموس، كما أن القاعدة الواعية تستطيع أن تحاسب النخبة الراشدة، وتعصمها من أمراض الزعامة وانحرافاتها، وبالتالي، تتبادل النخبة والقاعدة التأثير والتأثر. وتمضي السفينة متخطية العواصف والتقلبات بفضل تماسكها التام، ووعيها الحضاري الكامل.

٣٧

والحق أن أمتنا الإسلامية ـ صفوة وقاعدة، قيادات وشعوباً ـ في حاجة إلى إعادة احترامها وتقديرها الكامل لأساسين كبيرين:

---

(١) محمد علي (الحضارة الإسلامية بين التحدي والتعطيل)، اللقاء الرابع ١٣٩٩هـ، للندوة العالمية بالرياض.

أولاً: الإنسان. **ثانياً**: الوقت.

والإنسان في حقيقته كائن متصل اتصالاً وثيقاً بالحقيقة الزمنية، وهو لا يستطيع أن ينفك عنها.. فضياع الوقت إنما هو بالتالي ضياع للإنسان.. كما أن ضياع الإنسان.. وإهماله يعني ـ كذلك ـ الضياع للأساس الثابت في أي عمل حضاري..

وهذان الأساسان ينتظمان في كل عناصر الأمة، ولا غنى عنهما، أي عن احترام الحقيقة الإنسانية، واحترام عنصر الزمان، بحال من الأحوال.

أما الصفوة المختارة، التي تمثل عناصرها القيادة الحضارية للأمة، أو الطليعة المؤمنة الراشدة.. أما هذه النخبة، فلابد من أن يتحقق فيها شرطان أساسيان، لا ينفصل أحدهما عن الآخر..

وإن انفصال هذين الشرطين، هو أكبر أسباب البلاء التي حاقت بمسيرة الأمة الإسلامية.. وأدت إلى كثير من التقلبات والهزات.

إن هذين الشرطين اللذين يمثل التحامهما وامتزاجهما (معادلة صعبة) هما:

١. القوة. **٢**. الأمانة.

وإن القوة وحدها لا تكفي، بل هي سبيل لتدمير القوي لنفسه ولأمته.

وإن الأمانة وحدها لا تكفي، بل هي سبيل استبداد الحجاب والوزراء والمنافقين، وتاريخنا مليء بالشواهد على استبداد الطبقات الأدنى في القيادة حين نلمس «الأمانة والضعف» في الطبقات الأعلى!!

يقول الإمام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية في كتابه العظيم: «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية» محللاً هذه المعادلة ومبيناً رأيه فيها، بأسلوب رائع.. يقول:

«الفصل الثالث

(قلة اجتماع الأمانة والقوة في الناس):

اجتماع القوة والأمانة في الناس قليل، ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: اللهم أشكو إليك جلد الفاجر وعجز الثقة، فالواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها. فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة والآخر أعظم قوة، قدم أنفعهما لتلك الولاية، وأقلهما ضرراً فيها، فيقدم في إمارة الحروب الرجل القوي الشجاع، وإن كان فيه فجور، على الرجل الضعيف العاجز وإن كان أميناً (!!)، كما سئل الإمام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو، واحدهما قوي وفاجر، والآخر صالح ضعيف، مع أيهما يغزى؟ فقال: أما الفاجر القوي، فقوته للمسلمين، وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف، فصلاحه لنفسه، وضعفه على المسلمين، فيغزى مع القوي الفاجر. وقد قال النبي ﷺ: «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»، وروي: «بأقوام لا خلاق لهم»؛ فإذا لم يكن فاجراً، كان أولى بإمارة الحرب ممن هو أصلح منه في الدين، إذا لم يسد مسده.

ولهذا كان النبي ﷺ، يستعمل خالد بن الوليد على الحرب، منذ أسلم وقال: «إن خالداً سيف سله الله على المشركين». مع أنه أحياناً كان قد يعمل ما ينكره النبي ﷺ، حتى إنه ـ مرة ـ رفع يديه إلى السماء، وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد». لما أرسله إلى جذيمة فقتلهم، وأخذ أموالهم بنوع شبهة، ولم يكن يجوز ذلك، وأنكره عليه بعض من معه من الصحابة، حتى وداهم النبي ﷺ وضمن أموالهم؛ ومع هذا فما زال يقدمه في باب الحرب، لأنه كان أصلح من غيره، وفعل ما فعل بنوع تأويل.

وكان أبو ذر رضي الله عنه، أصلح منه في الأمانة والصدق، ومع هذا قال له النبي ﷺ: «يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب

لنفسي: لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم» رواه مسلم.. ينهي أبا ذر عن الإمارة والولاية؛ أنه رآه ضعيفاً، مع أنه قد روي: «ما أظلت الخضراء ولا أقلّت الغبراء، أصدق لهجة من أبي ذر».

وأمَّر النبيُّ ﷺ مرة عمرو بن العاص، في غزوة (ذات السلاسل) استعطافاً لأقاربه الذين بعثه إليهم، على من هم أفضل منه، وأمَّر أسامة بن زيد، لأجل ثأر أبيه، ولذلك كان يستعمل الرجل لمصلحة، مع أنه قد يكون مع الأمير من هو أفضل منه، في العلم والإيمان!!».

إن هذا النص حري أن يكتب بأظهر مداد، وحريٌّ أن يوضع في برامجنا لإعداد القادة المفكرين أو العسكريين أو الوزراء السياسيين أو الإداريين!!

ولو أن رجلاً غير ابن تيمية قال هذا الكلام لما قبله كثيرون. أما وصاحبه ابن تيمية ـ الرجل الذي أثبت لنفسه مكانة رفيعة في تراثنا وحضارتنا ـ فإن أحداً من الناس لا يستطيع أن يطعن فيه!!

إن فقيهنا المجدد.. صاحب أكبر موسوعة للفتاوى في تاريخنا ـ فيما نعلم ـ يفتي المسلمين ـ في صدق الرائد الذي لا يكذب أهله ـ بأن التقوى وحدها لا تكفي.. وليست هي المؤهل الوحيد للقيادة، ولصناعة الحضارة، ولتسيير مصالح العباد، وتحقيق النفع لهم.. بل إنه ليفتيهم اعتماداً على سلوك النبي محمد إمام حضارة المسلمين عليه الصلاة والسلام بأن التقوى.. ما لم تصحبها قوة فإن ضررها قد يكون أكثر من نفعها.. بالنسبة للأمة.

- ومن منا يرتاب في تقوى أبي ذر؟!.. ذلك العلم الفذ الذي يموت وحده ويبعث وحده!!

لكن هذه التقوى قد تكون غير مصحوبة بقلب قوي، وعقل عملي، ورؤية شاملة متجددة للوقائع المتطورة، وبالتالي قد تكون آثارها محصورة في إطار صاحبها، ولا تستطيع ان تمنح دفعة التغيير المناسبة.

بل إن الإمام ابن تيمية يرى أن (مصلحة الأمة) هي المقياس، فقد يقدم الفاجر إذا كان في تقديمه المصلحة.. والرجل يقول بصراحة يعجز عنها كثيرون: والواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها.. ويؤيد كلامه بقول إمام أهل السنة أحمد بن حنبل: «أما الفاجر القوي فقوته للمسلمين، وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف، فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين»!!

ـ أجل إن القوة.. هي الشطر المكمل للأمانة، والذي لا تتقدم الحياة إلا به في عصر يركل الضعفاء، ويبحث عن الأقوياء، ويسميهم الخبراء.

ويؤيد الرأي الذي ذهب إليه الإمام ابن تيمية ما ورد في القرآن الكريم في معرض الحديث عن قصة موسى عليه السلام مع شعيب.. فقد كانت (قوة موسى) هي المؤهل الأول الذي رشحه للعمل عند شعيب.. وقد جاءت بعدها الأمانة: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾[١].. وهذا حق..

ـ فكيف تنجح القيادة الحضارية في أي مجال إذا لم يكن لديها قوة؟!.

ـ وكيف تفيد الأمة وتحرس قضاياها إذا لم يكن لديها أمانة؟!.

أجل: إنها (معادلة صعبة).. لكنها ـ مع ذلك ـ الحل الحضاري الوحيد لمشكلة (القيادة) في تاريخنا!!

(١) القصص: ٢٦.

الضمير الإسلامي..
وحقوق الإنسان المسلم

٣٩

يعطينا القرن الرابع عشر المنصرم عدة دلالات يجب أن تستقر في ضمير المسلم وهو يعبر بوابة القرن الخامس عشر للهجرة.

- ومن أبرز هذه الدلالات: أنه لا أحد في العالم يشفق عليه أو يأبه به أو يحترم إنسانيته، على الرغم من لافتات حقوق الإنسان وهيئاتها المختلفة!!

- والضمير العالمي.. ضمير النصارى واليهود والشيوعيين ضمير ميت إزاء الإنسان المسلم.

فقد يُقتل أو يُؤسر عشرون جاسوساً أمريكياً أو بريطانياً أو فرنسياً.. فتقوم الدنيا ولا تقعد.. ويتجمع العالم كله من أجل حقوق الإنسان وهيبة المدنية والأعراف الدولية والدساتير والقوانين المتحضرة.. وهلم جرّاً.

لكن ـ على النقيض من ذلك ـ قد يباد شعب مسلم بأكمله.. يبيده الروس، أو يبيده حاكم مأجور، أو تبيده اليهودية، أو النصرانية.. فهنا.. ينام الضمير الأوروبي نوماً عميقاً، بل قد يدافع عن هذه التصفية الجسدية العامة ويلتمس لها المبررات والأسباب!!

وقد ثبت أن أوروبة وأمريكة وروسية على استعداد لتصدير كل شيء

إلينا.. من طائرات وملابس وتيارات فكرية مدمرة وحبوب منع النسل المسلم.. أجل كل شيء إلا الأشياء النافعة نفعاً مستمراً حضارياً..

- فهي ليست على استعداد لأن تصدر مبادئ الحرية التي تتشدق بها.. بل بدلاً منها تقوم بتصدير الانقلابات العسكرية الدكتاتورية فقط!!

- وليست على استعداد لتصدير التكنولوجيا المتطورة.. بل يكفي أن تعطينا منتوجات التكنولوجيا.. وحسبنا أن نكون مستهلكين!!

- وليست على استعداد لتعطينا القنبلة الذرية.. في مواجهة إسرائيل والهند.

وإزاء هذا الضعف المعنوي والمادي الذي تريد فرضه علينا القوى المعادية لكي نموت مخذولين أو نعيش مقهورين.. فإنه من المحتم علينا أن نبحث نحن عن حقوق أنفسنا المادية والمعنوية.. ولأنه في عالم القرن العشرين لا حقوق للضعفاء؛ فقد سمحت لنفسي أن أمزج بين أهمية حصولنا على (حقوق الإنسان والتكنولوجيا والذرة).. وكل ذلك بالطبع في إطار أصالتنا الإسلامية!!

والحقوق لا تُمنح.. وإنما تُفرض!!

والطريق إلى فرض الحق.. هو أداء الواجب.. وأداء الواجب يستلزم القوة.. ويؤدي إليها..

وإن ملفات الأمم المتحدة وقراراتها تثبت أن هذا القرن العشرين للميلاد لم يعطِ أيَّ ضعيف حقه.. كما أن هذه المنظمة أعجز من أن تفعل أي شيء لمن لا يفعل لنفسه!!

والخريطة الإسلامية مثخنة بالجراح.. إنها كمأدبة الأيتام يقتسمها اللئام..!!

ولا أمل في استعادة هذه الخريطة لهيبتها وحقوقها إلا بيقظة الضمير الإسلامي والعقل الإسلامي والروح الإسلامية..

وفي الداخل.. داخل المجتمعات الإسلامية.. قبل خارجها، يجب أن تستقر قواعد حقوق الإنسان المسلم، ويجب أن يفرض هذا الإنسان المسلم ـ بضميره اليقظ، وعقله الواعي البصير، وإرادته الإيجابية، وواجباته المؤدّاة، وروحه المؤمنة ـ حقوقه على جميع من يوجهون دفة الأمور في داخل المجتمعات الإسلامية وخارجها.

وفي تصورنا أن الطريق الوحيد لتحقيق حرياتنا ضد القوى الخارجية هو أن تتحقق حرياتنا وإنسانيتنا في داخل المجتمعات الإسلامية.. وذلك بأن تعود المجتمعات الإسلامية إلى داخل قوانين الحضارة.. فتحكم الرعية والرعاة بشريعة واحدة ثابتة لا بقوانين استثنائية ولا بأحكام عرفية ولا بدكتاتوريات تستمر أحقاباً وأجيالاً..

وبعيداً عن الاستطرادات التفصيلية نرى أن (حقوق الإنسان المسلم) تتلخص في الأساسيات الآتية[1]:

١. الحق في حماية الحياة وتوفير الطعام والملبس والمسكن والدواء والتعليم والأمن للإنسان المسلم.

٢. العدل.. فلا يقتل الإنسان بالظنة، ولا يؤخذ البريء بذنب الجاني، وحق أي إنسان في مقاضاة أي إنسان أمام قضاء محايد.

٣. المساواة في الحقوق والواجبات بين أفراد المجتمع.

٤. حق المشاركة في أمور بلده وأمته سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً.

(١) خالد إسحاق: حقوق الإنسان في الشريعة الإسلامية: المسلم المعاصر، عدد ١٧.

٥. الحرية في الاعتقاد والتفكير والتعبير في إطار الشريعة الإسلامية.
٦. حقه في عصيان ما يخالف دينه.. لأن دينه يأمره بهذا، ويقول له: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[1]، ويقول له: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».
٧. الحق في حماية السمعة والعرض والحياة الخاصة التي تخلو من عنصر المجاهرة وتحدي المجتمع.
٨. حماية الملكية الخاصة المكتسبة بالطرق المشروعة.
٩. الحق في أخذ الأجر الملائم دون إراقة ماء الوجه.

٤٠

وعلى المستوى الخارجي.. فإن الضمير الإسلامي يجب أن يستيقظ، ويتحدى التآمر العالمي ضده.. ففي قارة آسية ـ ونترك الآن الكتلة الشيوعية ـ أقليات إسلامية محرومة من حقوقها الإنسانية، في تايلاند، وبورمة، والفليبين، وتايوان (فرموزا)، وسيلان، ونيبال، وهونج كونج، ولاوس، وكمبودية، وفيتنام.

ومذابح المسلمين في الفليبين، ومساعدة أوروبة، وأمريكة لسفاحها (ماركوس) أمر معروف، وفي إفريقية أقليات أخرى محرومة من حقوق المساواة والتعليم الإسلامي والحياة الآمنة واقتناء الكتب الإسلامية أو تكوين إطارات تدافع عن حقوقها الإنسانية المهضومة.. وكل ذلك تحرسه أوروبة وأمريكة..

ومن هذه الأقليات مسلمو غانة، وأوغندة بعد عيدي أمين، وأنغولا، وكينية، وليبرية، وموزمبيق، وروديسية الشمالية (زامبية)، وروديسية، ومدغشقر. ولا نظن أن الأكثريات الإسلامية في آسية وإفريقية تتمتع بحقوق

---

(١) المائدة: ٢.

الإنسان، . . كلا . . وألف كلا . . فإن الأجهزة العالمية المتآمرة تأبى أن تترك هذا العالم الإسلامي ينطلق من عقاله . . لكي يعمل ويتقدم ويبدع، وهي ترصد كل هاجسة تقدم حقيقي، وتقاومها بأعنف الوسائل وأكثرها وحشية وهمجية.

وأمامك أربع دول إسلامية كبرى: ثنتان في آسية، وثنتان في إفريقية . . باكستان وإندونيسية في آسية، ونيجرية ومصر في إفريقية . . انظر ماذا آل إليه أمرها!!

فأما الأولى فقد أساء إليها حكامها بعد الانفصال عن الهند حين ربطوها بالغرب وبمعاهدة مع أمريكة، وكان جزاؤها أن يحكمها عدد من العسكريين الدكتاتوريين انتهوا بها إلى أن تشطر شطرين، وأن يحرم عليها أن تمشي في طريق التصنيع، وأن تهدد تهديداً صريحاً حين يذاع أنها بصدد الدخول إلى الحقل الذري، بينما عدوتها الهند تخطت هذه المرحلة ولم تلق أية مقاومة، وبينما تتمتع إسرائيل ـ فضلاً عن الدول الأوروبية ـ بهذه الطاقة!!

وأما الثانية فقد سلط عليها الشيوعيون بقيادة سوكارنو، وعندما استبد الشيوعيون أسقطوا وحل محلهم التبشير النصراني المدعم من أمريكة وأوروبة والفاتيكان، ووضع برنامج لتنصيرها ـ وهي أكبر دولة إسلامية ـ في خمسين سنة.

وقد ورد في أحد التقارير أن النصارى يزعمون الانتهاء من تنصير جزيرة جاوة التي يقطنها نحو ستين مليون مسلم خلال عشرين سنة.

وحتى الآن فإن التخطيطات ناجحة كل النجاح، وقد تم تنصير عشرة ملايين مسلم من فقراء إندونيسية ومرضاها وجهلائها . . تنصروا بسد عوزهم وعلاج أمراضهم وتعليم أبنائهم في مدارس التبشير، بينما أموال المسلمين تتخم بها بنوك أمريكة وأوروبة واليهود!!

٤١

وفي إفريقية حاول النصارى مع أكبر دولة إفريقية إسلامية أسلوب التمزيق وفصل بعض أقاليمها عنها.. فلما فشلت التجربة سلطوا عليها جيوشاً من النصارى وقطعوا وشائجها بالعالم الإسلامي.. حتى تؤكل منفردة..

وفي بعض البلاد الإسلامية سلطوا الشيوعية الدكتاتورية لتقوم بإهدار كل كرامة الإنسان المسلم، وفتحوا لكل حر كريم، ولكل مفكر مستقل، ولكل مؤمن بالإسلام عقيدة وشريعة.. فتحوا لكل هؤلاء أبشع معتقلات عرفها تاريخ البشرية!!

فلما سقطت الشيوعية في بعض البلدان كان البديل إحلال أمريكا والصهيونية العالمية، بكل ما عرف عن الصهيونية من وسائل استنزاف الشعوب وتدميرها عقائدياً وأخلاقياً واقتصادياً.

وهناك أقليتان إسلاميتان تعتبران أكبر أقليات العالم، وهما الأقلية الإسلامية في الهند، وتبلغ نحو مئة وأربعين مليوناً، وتمثل أكثر من ٢٠٪ من مجموع سكان الهند.

والأقلية الإسلامية الواقعة تحت النير الشيوعي سواء في الاتحاد السوفيتي أو الصين.

وتبدأ قصة مسلمي الهند سنة ١٩٤٧ م، وذلك بعد استشراء ظاهرة الذبح الجماعي للمسلمين في الهند بمساعدة الإنكليز.

وبتواطؤ حزب المؤتمر الذي كان يحكمه جواهر لال نهرو.. ففي هذا العام ١٩٤٧ م وافق البرلمان البريطاني على قيام حكومتين في الهند باسم (الهند) و(باكستان)، ولكن أرض الهند لم تقسم بين الهندوس والمسلمين

قسمة عادلة، بل سيطر الهندوس يدعمهم الحقد الصليبي البريطاني على كثير من بلاد المسلمين، وكانت حكومة الهند ترسل الجيش ليستولي على المقاطعات المختلف عليها، كما حدث في كشمير التي تبلغ نسبة المسلمين فيها أكثر من ٨٠٪، وكما حدث في حيدر آباد، وكذلك استأثرت بالموانئ الهامة مثل بمباي وكلكتا، وبالمدن الكبيرة كدلهي وبمعظم الثروة الوطنية وأموال الدولة.

ولم يطفئ هذا كله الحقد الوثني، بل قام الهندوسيون والسيخ بمذابح وحشية بين المسلمين، وقتلوا مئات الآلاف في دلهي وأمرتسار وغيرهما، وفي عربات القطارات المكتظة بالمسلمين المهاجرين من أطراف الهند إلى دار الهجرة (باكستان)، وكان الجيش الهندي هو الذي يشرف على هذه المذابح، وهو الذي يطرد المسلمين الآمنين من بيوتهم في المناطق التي قررت حكومة الهند أن تكون تابعة لها[١].

وقد بقي في الهند ـ بعد انفصال باكستان ـ أكبر أقلية في العالم.. وهذه الأقلية الكبيرة لا يمر شهر دون أن تدبر لها المذابح، التي يتعاون فيها رجال الشرطة، مع الجماعات الهندوسية المتطرفة، وينغصون على المسلمين كل مناسباتهم الدينية، ويذبحون منهم بالمئات في كل مرة.. دون أن يوضع حد لهذه المجازر المكررة والمستمرة، ودون أن يرتفع الضمير الإسلامي إلى مستوى المسؤولية!

أما قصة الأقلية الإسلامية الواقعة تحت نير الشيوعية، فتبدأ في الاتحاد السوفييتي من سنة ١٩١٨ م (١٣٣٦ هـ) حين زحف الجيش الشيوعي بعد نجاح الثورة البلفشية على جمهورية أورال وشمال القوقاز (قفقاسية) وحكومة خوقند في تركستان. وفي سنة ١٩١٩ م (١٣٣٧ هـ) استولى على جمهورية

(١) محي الدين القضماني: حاضر العالم الإسلامي، ص ٧٩، مطبوعات الجامعة الإسلامية.

آلاش أوردو، وفي سنة ١٩٢٠م (١٣٣٨هـ) احتل القرم وجمهورية أذربيجان وجمهورية خيوة في بلاد التركمان، وفي سنة ١٩٢١م (١٣٣٩هـ) هاجم جمهورية بخارى واستولى عليها بعد قتال مرير.

وفي هذه الفترة كان عدد المسلمين في الاتحاد السوفييتي أكثر من ستين مليون مسلم. وقد حاول الشيوعيون أن يغيروا معالم البلاد الإسلامية فهجَّروا المسلمين من بلادهم إلى مجاهل سيبرية وأواسط آسية، وأتوا بآلاف الروس والسلاف فأسكنوهم أذربيجان وتركستان والقرم، وهلك من المسلمين عند مقاومتهم خلق كثير حين رفضوا ترك أرضهم والخضوع لهذا المخطط الرهيب، واستطاع الشيوعيون أخيراً أن يغيروا معالم البلاد الإسلامية ويشردوا أهلها..!!

فقد كان في القرم مثلاً خمسة ملايين مسلم سنة ١٣٢٥هـ / ١٩١٧م، فأصبحوا عام ١٣٥٩هـ / ١٩٤٠م أربعمئة ألف، كما كان في روسية عشرة ملايين في جمهورية تتارية وباشكير ولا يعلم مصيرهم إلا الله، ولا يزال الستار الحديدي يخفي عن العالم مصير ٣٥ مليوناً في جمهوريات كازاكستان وقيرغيزية وأوزبكستان وتركمانستان وتادجكستان وأذربيجان وداغستان وغيرها.

أما الصين الشعبية فلم تكن أقل اعتداء على المسلمين من روسية حين اغتصبت بلادهم وحاولت إفناءهم، وكان في الصين خمسون مليوناً من المسلمين، وأكثر من ٤٢ ألف مسجد كما جاء في إحصاء ١٩٣٦م، ويسكن هؤلاء المسلمون مقاطعات واسعة أهمها سينكيانج ومنشورية وهايي وهانان وسان نو وغيرها، ولم يكن مصير المسلمين في الصين أفضل من مصير إخوانهم في الاتحاد السوفييتي[١].

(١) المرجع السابق نفسه: ص ١٦، ١٧.

وهناك شعوب إسلامية كاملة محرومة من حقوق الإنسان، وتنسحب عليها المؤامرة العالمية ضد الإنسان المسلم، ومن هذه الشعوب شعب (ألبانية) المسلم الواقع تحت نير الاحتلال الشيوعي، وشعب أفغانستان، الذي يحكم بجيش شيوعي مقيم، وشعب أرتيرية المسلم الذي يحكمه نصارى أثيوبية، وشعب أثيوبية المسلم الذي يزيد المسلمون فيه عن ٦٥٪ وتحكمه أقلية نصرانية رأت أخيراً أن تستتر في ثوب الشيوعية، وشعب الصومال وعدن المسلمان اللذان تحكمهما حفنة شيوعية، وشعب تنزانية المسلم (تنجانيقة وزنجبار) الذي يحكمه نصراني يتستر في الشيوعية وهو (جوليوس نيريري)!!

والحق أنه من الصعب استعراض كل أجزاء الخريطة الإسلامية للتعرف على أوضاع مسلميها الممتهنين.. فحتى تلك الشعوب التي يبدو وضعها من الناحية الشكلية القانونية سليماً.. فإن إهدار حقوق المسلمين فيها بواسطة بعض أبنائها، الذين رباهم الاستعمار على عينه، وبغَّض إليهم الإسلام، أمر مقرر معروف، بحيث إننا لا نكون مبالغين إذا قلنا: إن عالم المسلمين على مشارف هذا القرن الخامس عشر يحتاج إلى (هيئة إسلامية) ترعى حقوقه المهضومة وكرامته المستباحة.. هيئة تنبثق من صفوة الأمة ومخلصيها وفقهائها في القانون الدولي العام، والخاص، ويكون عملها أن تدافع عن إنسانية المسلمين الضائعة.. في عالم تحكمه عصابة من الذئاب تتشدق ليل نهار بالحرية والإخاء والمساواة والحضارة.. وهي من كل هذه المعاني الكريمة براء!!




الدور العالمي

٤٢

لن يستطيع المسلمون الخروج من مشكلاتهم الصغيرة والجزئية والمبعثرة في أكثر أركان فكرهم وحياتهم، إلا بالإصرار على رفض التمزق الداخلي والانهيار النفسي الذي تحدثه هذه المشكلات، ولن يتم لهم ذلك إلا بالإحساس بمسؤولية كونية وعالمية، ليس تجاه أنفسهم ومجتمعاتهم فحسب، بل تجاه الإنسانية كلها.

وهذا ما تحدده لنا الآية الكريمة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[(١)].

وكما يقول المفكر الهندي المسلم (وحيد الدين خان): «فإنه لم يوجد عصر من العصور تفتحت فيه آفاق العمل للرسالة الإسلامية العالمية مثل القرن العشرين، بفضل النتائج الدنيوية لثورة الإسلام التوحيدية»..

فهناك كل أنواع التأييد للفكر الإسلامي والتصور الإسلامي للكون والحياة، تقدمها العلوم الإنسانية، التي تندرج تحتها علوم النفس والاجتماع والتاريخ والتشريع، كما أن ما اكتشف من حقائق الكون، قد دحض الأساطير التي قدمتها الأديان الأخرى، كاليهودية، والمسيحية، وأكدت ـ في الوقت نفسه ـ أحقية الدين الوحيد الجدير بهذه التسمية، وهو الإسلام.

ومما قدمه العصر من وسائل العون للدعوة الإسلامية والحضارة الإسلامية:

---

(١) البقرة: ١٤٣.

١. فصل السياسة عن الخرافات التي كانت تسمى ديناً، بعد أن فقدت الكنيسة قدرتها على الإرهاب والسيطرة والتسلط.. بينما الإسلام وحده هو الذي يقدم الدين والدنيا في سياق معقول واحد.

٢. شيوع حرية الرأي والبحث، وهو أمر خطر على الأديان الأخرى إلا الإسلام.

٣. شيوع تدبر ظواهر الكون وتسخيرها.

٤. شيوع المنهج العلمي والفكر التاريخي، الذي قضى على الأسطورة والفكر الخرافي.

٥. توفر الوسائل الإعلامية كأجهزة الإعلام السمعية والمرئية والمطبوعة[١].

وثمة جانب آخر خطر يساعد على تحول المسلم إلى رسول حضارة إنسانية في هذا العصر؛ بحيث ينظر إليه على أنه المنقذ من خطر الفناء الإنساني الشامل.

وهذا الجانب، يتمثل في الأوضاع التي انتهت إليها الحضارة الأوروبية التي توشك أن تقضي على إنسانية الإنسان ومستقبله.

وفي ظل هذه الحضارة:

«لا ندري إلى أين نحن سائرون.. ولكننا نسير».

كما عبر الشاعر الأمريكي (بينيه).

أما (رينيه دوبو) فيعبر عن هذا الانهيار في كتابه إنسانية الإنسان، ويصف الحضارة الأوروبية في كلمات قليلة:

---

(١) انظر بتصرف رسالة (إمكانات جديدة للدعوة) نشر القاهرة.

«كل حياة شخصية ناجحة، وكل مدينة ناجحة، دعمتها أجهزة منظمة من العلاقات التي تصل الإنسان بالمجتمع وبالطبيعة، وهذه العلاقات الأساسية تضطرب بسرعة وعمق الآن بسبب الحياة العصرية، التي نحياها، والخطورة ليست مقصورة فقط على اغتصابنا للطبيعة، بل في تهديدنا لمستقبل البشرية نفسها».

وعن (دوبو) ننقل كلمة رئيس بلدية (كليفلند) متهكماً: «إذا لم نكن واعين فسيذكرنا التاريخ على أننا الجيل الذي رفع إنساناً إلى القمر، بينما هو غائص إلى ركبتيه في الأوحال والقاذورات».

ولن نستطيع تتبع ما قاله كل المشخصين لحضارة أوروبة من أبنائها: وذلك كألكسيس كاريل في كتابه الإنسان ذلك المجهول، أو أرنولد توينبي: «حيث يكتسح رجل الشرق المجتمع الآلي، ويستعمل النور الكهربائي لإضاءة الشوارع والبيوت، لكنه لن يبلغ به مرتبة الرقيق، ولن يرفع له معابد وصوامع، كما هو الحال في بربرية المجتمع الآلي الغربي.. إنه لن يضيء ـ بنور النيون ـ خطوط القلب والفكر..

إن رجل الشرق سيجعل نفسه سيداً للآلات والمجتمع الآلي».

إن الفكر الإنساني المتحرر، المستوعب لأزمة الحضارة المادية، التي تكاد تخنق إنسانية الإنسان، وتدمر الجنس البشري..

هذا الفكر الإنساني سيجد في الصياغة الإسلامية للحضارة المحضن والملاذ والملجأ.

لكن المهم أن يدرك المسلمون دورهم، ويخططوا له، ويستغلوا الإمكانات المتاحة للدعوة في هذا العصر.. ويتقدموا بقلب واثق مؤمن، وعقل قوي منفتح إلى الساحة التي تناديهم:

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

(وأخيراً): عالم الإسلام المرتقب

٤٣

نقرأ كثيراً أن الإسلام (بناء كامل متوازن)، وأنه (نظام شامل للحياة) و(دين ودولة). .

وهذه الأقوال لشيوعها قد بدأت تفقد معناها الحق، وفعاليتها الواجبة في الفكر الإنساني. . وقد أصبحت ـ في رأي الكثيرين ـ وكأنها كلمات إنشائية فارغة المحتوى. .

ونحب أن نوضح أن هذه المصطلحات التي شاعت في الفكر الإسلامي الحديث تعني ـ في تصورنا ـ معنى واحداً لا يفهمه كثير من الذين يلوكونها. .

إن هذا المعنى هو (الحقيقة الإسلامية) التي نتقدم بها إلى إنسانية القرن الخامس عشر. .

وهذه الحقيقة الإسلامية ليست هذا الإسلام الموجود في مخيلة كل منا، وليست الإسلام المذهبي الذي يركز فيه على مذهبية سنية أو شيعية أو صوفية.

ليست إسلاماً رجعياً أو تقدمياً أو ثورياً. .

وليست إسلاماً (يسارياً) أو (أمريكياً). .

كلا . .

إنما الحقيقة الإسلامية بناء له طوابقه وله أساسه، ويخضع لنظام دقيق من (النسب) المتوازنة والمنسجمة والمتكاملة.. فللعقيدة دورها الأساسي وللنظم الاجتماعية والاقتصادية والتربوية والسياسية حجمها ودورها.. وللأخلاقيات حجمها ودورها..

وهكذا تتسلسل الحقائق والقيم في الإسلام خاضعة لاعتبارين:

١. مكانة وأولوية لا تتعداها.

٢. حجم لا تتجاوزه.

وهذا البناء الهندسي الدقيق نفهمه من قول الرسول ﷺ: «الإيمان بضع وستون شعبة».. وليس من حق أحد أن يعطي شعبة من هذه الشعب (مكانة) ليست لها، أو (حجماً) لا تستحقه.. كما أنه ليس من حق أحد أن يركز على شعبة من الشعب بحيث تكون ظلالها أكثف من غيرها، فتبدو كثير من الشعب المجاورة لها باهتة.. أو عاجزة عن أداء دورها.

إن هذا الإسلام ـ بهذا النظام النسبي ـ هو الإسلام الذي يُسقط ـ علمياً ـ كل التيارات الاجتماعية والاقتصادية والترفيهية الوافدة علينا، والتي تسعى إلى تغيير صياغة حياتنا.. كما أن هذا النظام هو ـ وحده ـ الحقيقة الإسلامية التي نستطيع أن نتقدم بها إلى إنسانية القرن الخامس عشر للهجرة!!

وعندما ننجح في الاحتفاظ للإسلام بنظامه وحقيقته، ونحسن التعبير عن هذه الحقيقة، ونترجمها إلى واقع معاش، فإن الناس ـ في كل العالم المتخبط المرتبك ـ سيدخلون في دين الله أفواجاً..

لماذا؟

لأنهم سيجدون في الإسلام الإشباع لكل احتياجاتهم الروحية والعقلية والنفسية والجسدية.. وسيجدون العدل الذي يهيمن على كل الجزيئات،

ويحفظ لكل منها حجمها ودورها.. وسيجدون أنهم لا يستطيعون أن يلتمسوا في الإسلام شيئاً فلا يجدونه، أو أنهم مضطرون لأخذ بعضه وترك بعضه كما فعلوا مع غيره من الأديان والمذاهب.

كلا.. ففي عقيدة الإسلام الألوهية ستتحقق الحاكمية لله وحده، وستسود شريعته، وستزول ـ بالتالي ـ سائر الحاكميات البشرية، وينتهي الطغيان من على الأرض..

وسيجد الناس أن هناك ميزاناً ثابتاً عادلاً تعرض عليه كل الآراء وكل الأشياء فيثبت منها ما يثبت، وينفي ما ينفي..

وستحل العبادات الإسلامية ـ عندما يطبقها الناس على حقيقتها في إطار من الوعي بدورها والشعور بمكانتها الحقة ـ.. ستحل هذه العبادات سائر الأحقاد الاجتماعية، وستوجد المساواة والرحمة والصدق مع النفس ومع الآخرين.. وستجعل من خشية الله ومراقبته حقيقة واقعة.. وستقوم الأخلاق الإسلامية بعملية الترميم الشامل لكل الفجوات التي ربما تظهر في بعض مراحل التطبيق من جراء سيطرة الطبيعة البشرية الضعيفة..

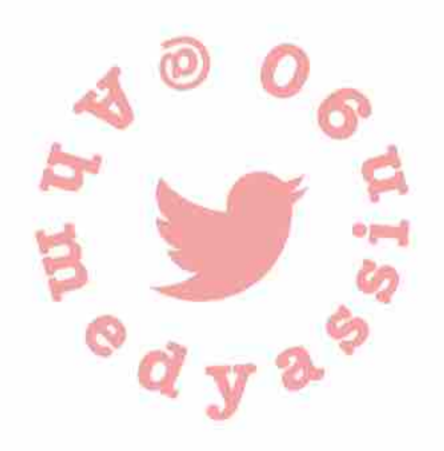
وكذلك تقوم الأخلاق بعلاج الحالات التي توجب الالتزام بروح الشريعة،.. إنها مرحلة (الإحسان) و(الإيثار)..

وفي كل ذلك لو قدمنا الحقيقة الإسلامية ـ كما أرادها الله ـ ستجد الإنسانية حقيقتها الضائعة ومنهجها القويم: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[١].

صدق الله العظيم.

(١) الفتح: ٢٨.

فهرس الموضوعات


@Ahmedyassin90